



الصور البيانية للعادات الجاهلية

فى المعلقات السبع

دكتور

على محمد حميد حماد

مدرس البلاغة والنقد

فى كلية اللغة العربية بالزقازيق



الصور البيانية للعادة الجاهلية في المعلقة السبع

دكتور

على محمد حميد حماد

مدرس البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بالزقازيق

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين،
وسيد ولد آدم أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
فجاهلية العرب ضاربة في القدم، يحيط بها الخفاء من جوانب
كثيرة؛ لتقادم العهد، وطول الزمان بيننا وبين عرب الجاهلية .
ولولا ما حكاه القرآن، وما سجلته السنة النبوية عن عادات
العرب التي حرمها الإسلام، ولولا ما بقى من آثارهم الأدبية التي تناقلها
الرواة حتى عصور التدوين ما علمنا عن حياتهم شيئاً .
ومما لا شك فيه أن كثيرا من الشعر الجاهلي تعرض للضياع،
ولعل أهم سبب وراء ذلك هو عدم تدوينه حين قاله أصحابه؛ لأن
العرب لم تشتهر فيهم الكتابة التي كانت تمكنهم . لو تهيات لهم . من
الحفاظ على تراثهم الأدبي .
وبلاد العرب واسعة، مترامية الأطراف، ومن الجائز أن نفترض،
بل من الصواب أن نفترض أن هناك شعراء جاهليين ماتوا ولم يسمع
عنهم أحد غير أفراد قبيلتهم؛ فقد انقطعت الأسباب بين كثير من
الشعراء وبين الشهرة فلم يصلوا إليها، وهناك قبائل زواها التاريخ
فدفنت، ومعها شعراؤها .

ونحن نتأثر كثيرا ويصيبنا الحزن أحيانا على فقداننا كثيرا من شعر العرب في عصور الأدب الزاهرة!

وقد أحس هذه الحقيقة علماء الأمة قديما، قال ابن سلام الجمحي: (ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها ... إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ... قال يونس بن حبيب: قال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثيرا...!)^(١).

فأبو عمرو بن العلاء يربط بين العلم والشعر، ويرى أن شعر العرب يحوى علما وضياعه ضياع لهذا العلم، وهو كلام دقيق جدير بالتأمل والاستحسان وفهم مقاصد قائله.

وقد أدرك ابن قتيبة هذه الحقيقة فقال: (والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط، أو يقف وراء عددهم واقف، ولو أنفذ عمره في التنقيب عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه، ولا قصيدة إلا رواها)^(٢).

(١) ينظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ج١ ص٣، ٢٥، ٢٦ تحقيق محمود محمد شاكر - نشر دار المدني بجدة . ويراجع المزهري للسيوطي ج٢ ص٢٩٤ طبع محمد علي صبيح .
(٢) ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٩ تحقيق د/ مفيد قميحة والأستاذ/ محمد أمين الضناوى طبع ونشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م ويراجع الحيوان للجاحظ ج٦ ص٢٧٧ تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط أولى دار إحياء التراث العربى - بيروت سنة ١٣٨٨ هـ.

والشعر الجاهلى له مكانة لا تجحد، وقيمة لا تلحد، وله عند علماء العربية ذكر ساطع، وبريق لامع، وسمت رائع يشهد به كل من أحسن تذوقه ووقف على دقائقه وتأمله .

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر . رحمه الله . : (حين أخذنى النهم بالشعر الجاهلى، وبدأت أقرأ ما بقى لدينا من دواوين شعر الجاهلية شاعرا شاعرا ... بدأت أجد فى هذا الشعر الجاهلى شيئا مباينا مباينة سافرة لما فى الشعر العباسى كله، بل أكبر من ذلك : أنى افتقدت هذا الشئ أيضا فى أكثر ما قرأت من الشعر الأموى الذى لا يفصل بينه وبين الجاهلية إلا المئة الأولى من التاريخ الهجرى، وهو زمن قليل لا يعتد به ... فلما أوغلت فى القراءة وأكثرت ... وجدت فى الشعر الجاهلى شيئا لم أكن أجده من قبل ... وجدت يومئذ فى الشعر الجاهلى ترجيعا خفيا غامضا كأنه حفيف نسيم تسمع حسه وهو يتخلل أعواد نبات عميم متكاثف، أو رنين صوت شجى ينتهى إليك من بعيد فى سكون ليل داج ، وأنت محفوف بفضاء متباعد الأطراف، وكان هذا الترجيع الذى آنسته مشتركا بين شعراء الجاهلية الذين قرأت شعرهم، ثم يمتاز شاعر من شاعر بجرس ونغمة وشمائل تتهادى فيها ألفاظه، ثم يختلف شعر كل شاعر منهم فى قصيدة قصيدة من شعره، وبدندنة تعلق وتخفت تبعا لحركة وجدانه مع كل غرض من أغراضه فى هذا الشعر ... صار لكل شاعر عندى مذاق، وطعم وشذا ورائحة، وصار مذاق الشعر الجاهلى وطعمه وشذاه ورائحته بيانا عندى، بل صار تميز بعض من بعض دالا يدلنى على أصحابه) (١) .

(١) ينظر هذا الكلام الرائع فى: المتنبى رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا للأستاذ/ محمود محمد شاكر من ص ٩ : ١١ مطبعة المدنى ١٤٠٧ هـ وإنما آثرت نقل هذا الكلام - مع طوله -؛ لأنه منارات لى تهدينى إلى تأمل معلقة كل شاعر، كيف كانت دليلا دالا على قائلها .

والشعر الجاهلي ما زال بحاجة ماسة إلى دراسات جادة ومتنوعة تحاول أن تتعرف على خصائصه ومزاياه، وأحوال أصحابه، ويدرك كل الدارسين للشعر الجاهلي: (أن كثيرا من ملامح النفسية العربية لا تزال غائبة في كثير من الدراسات الكلفة بهذا الشأن، وفي كثير من الأعمال الهادفة إلى إبراز هذه الشخصية، ومكوناتها النفسية في تاريخها القديم، حتى لتكاد تراها في كثير من الصور المعروضة والمدروسة أبعد ما تكون عن حقيقتها) (١).

(والمعلقات السبع)، قصائد سبع تخيرتها العرب وانتقتها من الشعر القديم كله؛ لجودتها، وروعيتها، واشتهرت بالسبع باعتبار عددها، ومن أوصافها: (المعلقات)، و(المذهبات)؛ لأنها كتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة، ووصفت (بالطوال)؛ لطولها، ووصفت بـ(المشهورات)، لشهرتها إلى غير ذلك من صفات يعظمها الدارسون للشعر الجاهلي (٢).

- (١) ينظر: قراءة في الأدب القديم. للدكتور محمد أبو موسى ص ٧٦ طبعة أولى دار الفكر العربي سنة ١٩٧٨ م.
- (٢) أسماء وصفات المعلقات أمر مشهور عند كل الدارسين ومن الإطالة تفصيل ذلك. يراجع - على سبيل المثال - إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٧٤ تحقيق/ عماد الدين أحمد حيدر نشر مؤسسة الكتب الثقافية، ويراجع: مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ تحقيق: درويش الجويدي طبع المكتبة العصرية ببيروت ١٤٢٣ هـ، والمزهر للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٧، ٢٩٨ طبع محمد علي صبيح، ومقدمة شرح ابن الأنباري ص ١١ تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط دار المعارف الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ ويراجع مقدمة شرح ابن كيسان لمعلقة عمرو بن كلثوم تحقيق د/ محمد إبراهيم البنا ط دار الاعتصام طبعة أولى ١٤٠٠ هـ ويراجع شرح المعلقات العشر للدكتور/ عبدالعزيز محمد الفيصل ج ١ ص ٣٧٢ الطبعة الأولى الرياض ١٤٢٣ هـ.

وأوقف قليلا أمام وصفها بـ(المشهورات) واستحضر كلاما موجزا لابن خلدون، وهو مع إيجازه يفسر لنا شيئا مهما، قال في شأن المعلقة: (فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها . يقصد الكعبة . من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر)^(١) .

وكلام ابن خلدون . هنا . يفسر لنا سبب اختلاف الرواة والشرح في عددها، ويفسر لنا أيضا العلاقة بين تعليق القصيدة، وشهرة القبيلة، فقد تقوى بعض القبائل في زمن ما، ويكون لها الشهرة فيتمكّن شعراء هذه القبائل من تعليق قصائدهم، ثم تضعف هذه القبائل أو بعضها في وقت ما، وتقوى قبائل أخرى فتعلق أشعار شعرائها وهكذا الأمر في ذلك الزمان الطويل .

وسوف أتناول (المعلقة السبع) كما هي عند ابن الأنباري، والوزني، وابن عبدربه، وهذا هو المشهور عند العلماء وترتيب ابن الأنباري للمعلقة كما يلي:

- ١ - قصيدة امرئ القيس .
- ٢ - قصيدة طرفة بن العبد .
- ٣ - قصيدة زهير بن أبي سلمى .
- ٤ - قصيدة عنتره بن شداد .
- ٥ - قصيدة عمرو بن كلثوم .
- ٦ - قصيدة الحارث بن حلزة .
- ٧ - قصيدة ليبيد بن ربيعة^(٢) .

وقد دفعني إلى اختيار هذا البحث تحت هذا العنوان (الصور البيانية للعادات الجاهلية في المعلقة السبع) أمور كثيرة منها ما يلي:

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ .
(٢) اتفق أولئك العلماء في القصائد وأصحابها واختلفوا قليلا في الترتيب .

١ - غيبته عن ساحة الدراسات البيانية فلم يفردّه أحد . فيما أعلم . بالبحث البياني ، ولعل دراسته تفتح لنا مجالا واسعا للشواهد البيانية القديمة في الدرس البلاغي بدلا من تكرار الشاهد الواحد .

٢ - أنها دراسة تحاول أن تكشف عن حياة عرب الجاهلية التي ما زلنا نجهل كثيرا منها، وتحاول في الوقت نفسه أن تتعرف على خصائص وسمات ذلك الأدب القديم، ومدى الاتفاق أو الاختلاف في أساليب التعبير بين أولئك الشعراء الكبار .

٣ - المعلقة تمثل أشهر وأحسن ما قيل في الشعر الجاهلي، ومن المعلوم أن عرب الجاهلية اتحدوا في البيئة والزمان والعادات ومع هذا كله ظهر تفوقهم البياني في تعبيرهم عن المعاني، وكان لكل شاعر منهم سمته الخاص .

وقد أدرك شعراء الجاهلية حقيقة هذا الأمر، ومدى الصعوبة التي واجهتهم حين أرادوا تصوير الأشياء في بيئة واحدة !! فهذا عنتره يقول: هل غادر الشعراء من مترد ... واستفهامه هنا معناه الإنكار أي: لم يترك الشعراء فنا من الشعر إلا سلكوه، فكأنه يقول: لم يترك الأول للأخر شيئا فالشعراء لم يتركوا له مسترقعا ليرقععه، والكلام على التمثيل كما هو واضح^(١) .

وهذا زهير بن أبي سلمى يقول:

ما أرانا نقول إلا معارا .: أو معادا من لفظنا مكرورا
فهو كما ذكر الدكتور: شوقي ضيف (يشعر أنهم يبديون
ويعيدون في ألفاظ ومعان واحدة، ويجرون على طراز واحد، طراز
تداولته مئات الأسنة)^(١)، إذا أدركنا ذلك ووقفنا على هذه الحقائق لزم

(١) ينظر البيت في أول معلقة عنتره ويراجع شرح ابن الأنباري
ص ٢٩٤، ٢٩٥ وشرح الزوزني ص ١٣٧ .

علينا أن نعترف لأولئك الشعراء بأنهم بلغوا من الغايات أقصاها، وجنوا من العربية أشهاها .

(يقول المستشرق نولدكه: إنا لئتملكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم، إذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشئونها ، وتوجد مناظر بلادهم، واطرادها اطرادا يدعو إلى السآمة والملل، وهذا يستتبع حتما ضيق دائرة التفكير .. وحسب العرب فخرا أن يكون لهم هذا الصيت البعيد فيما قاموا به من مجهود فكري عظيم، تمخضت عنه هذه اللغة القديمة التي كتب لها الخلود والبقاء)^(٢) .

٤ - وكان من أسباب إقدامى على هذا البحث، محاولة فهم هذه العادات الجاهلية، ومدى خطورتها على المجتمعات؛ ليحذرنا كل مسلم ويحتاط لنفسه، فيبتعد عما حرم الله، ويحذر التقليد والتشبه بالجاهلين، والكافرين .

وبحثنا . كما هو واضح من العنوان . فى دراسة الصور البيانية . سواء أكانت تشبيها، أم مجازا، أم كناية . للعادة الجاهلية^(٣) لنرى

(١) ينظر العصر الجاهلى للدكتور/ شوقى ضيف طبع دار المعارف الطبعة الثامنة ص٢٢٦ ولم أعثر على هذا البيت فى ديوان زهير، والذى عثرت عليه فى هذا المعنى هو قول الصحابى الجليل كعب ابن زهير:

ما أرائنا نقول إراجيعا .: ومعادا من قولنا مكرورا

ينظر ديوان كعب بن زهير برواية أبى الحسن العسكرى ص١٢٣ ط دار الكتاب العربى سنة ١٤٢٥ هـ، ويراجع ديوان زهير بن أبى سلمى برواية ثعلب ط دار الكتاب العربى سنة ١٤٢٤ هـ .

(٢) ينظر أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام لعلى الجندى وآخرين ج١ ص٢٨ طبع مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م .

(٣) سيأتى بيان هذه العادات وتحريم الإسلام لها فى التمهيد .

كيف أبدع أولئك الشعراء في صورهم، وسنقف مع كل صورة مدركين
علاقتها بصاحبها ودلالاتها عليه .

وسوف يعتمد منهج البحث على دراسة الصورة مرتبطة بالسياق
والمقام، مع مراعاة صفات كل شاعر وما عرف عنه؛ لعل ذلك يهدينا
إلى إدراك بعض الخصائص والدلالات التي قد تخفى . أحيانا . ولا يدل
عليها التركيب وحده .

وجاء البحث في: مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة .
ذكرت في المقدمة أهمية الموضوع، وقيمته، ومنهج البحث
وخطته. وجاء التمهيد في بيان العادات الجاهلية التي عاشها العرب ثم
أبطلها الإسلام، وجاءت المباحث كما يلي:

المبحث الأول: عادة شرب الخمر .

المبحث الثاني: عادة التفحش في أوصاف النساء .

المبحث الثالث: عادة الظلم .

المبحث الرابع: عاداتهم في الموت .

المبحث الخامس: عادات: التمايم، الوشم، الميسر، الأزام .

أما الخاتمة فذكرت فيها أبرز نتائج البحث، ثم أشرت إلى أهم المراجع .

والله أسأل أن يجعل هذا البحث نافعا في بابيه، مفيدا على القصد

الذي أردناه .

دكتور

على محمد حميد حماد

مدرس البلاغة والنقد في كلية

اللغة العربية بالزقازيق

التمهيد

العادة الجاهلية^(١)

أقصد بالعادة الجاهلية تلك الأشياء التي اعتادها عرب الجاهلية، وتعلقوا بها واستقرت في مجتمعهم، ثم جاء الإسلام فأبطلها، وأعلن فسادها، وحرّمها على الناس .

ونحن لا نكلف عرب الجاهلية بأن يقولوا غير ما قالوه ويصفوا غير ما رأوه؛ فهي جاهليتهم كما عاشوها، وحياتهم كما صوروها، (وليس ينبغي للعقل أن يسوم اللغات ما ليس في طاقتها، ويسوم النفوس ما ليس في جبلتها)^(٢) .

فقد عاشوا حياتهم كما فرضها الواقع عليهم، فإذا وصف الجاهلي (الخمّر) أو (الميسر) أو غير ذلك فهو قد وصف واقعه الذي انغمس فيه، وأحسه ، وهذا ليس أمراً عجبياً؛ (سئل أحد العلماء: أما ترى هذا الأعرابي يعرف من النجوم ما لا نعرف؟! قال: ويل أمك، من لا يعرف أجداع بيته؟)^(٣) .

فكل إنسان يصف واقعه، ويحكم على ما يملك، ويقول ما عنده على قدر خلقه وطبعه، ومن صدق الكلمة أن تطابق واقعها وتعبّر عن قائلها^(٤) .

(١) هناك عادات حسنة، وأخلاق فاضلة سادت في العصر الجاهلي، ليست موضوع هذا البحث، وقد يتسع لها المجال في بحث آخر إن شاء الله .

(٢) الحيوان للجاحظ ج٦ ص٨ .

(٣) السابق ص٣١ .

(٤) عقد الجاحظ في البيان والتبيين بابا في هذا المعنى، يراجع لأهميته في ج٢ ص١٧٥ : ٢٠٧ تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون طبع: دار الجيل - بيروت .

فالكلام فيه خصوصيات صاحبه، وطبعه، وسيماه (وربط فضل البيان بفضل صاحب البيان، ودرجات هذا الفضل، وكيف تتوازن فيستوى فضل زيد بفضل بيان زيد، هذا عالم آخر، وميدان آخر وهو عالم زاخر، وميدان غير موطوء ... وهي محتاجة إلى دراسة متسعة تدرس الإعجاز والبلاغة والشعر والنثر من هذا الوجه)^(١).

وسوف أحاول . بعون الله . أن أربط بين الكلام وصاحبه، وأستدل به على قائله، عسى أن يكشف لنا ذلك عن خصوصيات كل شاعر .

وقد جمعت هذه المعلقات السبع، سبع شخصيات مختلفة، فإذا كان امرؤ القيس ملكا وابن ملك، أخذ ما أخذ من الشهرة في قبائل العرب، وعند نساءها، فهذا عنتره ابن شداد ابن أمة سوداء لم يلحقه أبوه بنسبه، ولم يفكه من قيود العبودية إلا بعد زمان طويل، ثم هو يشقائق إلى ابنة عمه ويبقى وفيها لها عاشقا لذكرها في أصعب الأوقات ثم يحرم منها!!

وإذا كان زهير قد كساه وقار الشيوخ، فهذا طرفه فيه نزق وخفة الشباب، وإذا كان عمرو بن كلثوم مفتخرا بقبيلته إلى حد التهور والغرور، فهذا الحارث بن حلزة يفتخر بحكمة ووقار وثبات ... وقد انعكس طبع كل شاعر على معلقته حتى صارت كل معلقة دليلا دالا على صاحبها .

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى للدكتور/ محمد أبو موسى ص ١١٩، ١٢٠ مكتبة وهبة الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١م وقد اهتم أستاذنا د/ أبو موسى بهذا الأمر وذكر فيه كلاما طيبا وأستدل بأدلة كافية، يراجع مقدمة كتابه (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) الطبعة الثانية مكتبة وهبة سنة ١٩٨٨م .

يريدها الشيطان، وقد حرم رسول الله (ﷺ) الخمر والتجارة فيها وذكر أن مدمن الخمر لا يدخل الجنة^(١).

وبهذا النهى الصريح والتحريم القاطع تحول المجتمع إلى حياة الطهر والنقاء، وصان الإسلام حرمت الناس، وحافظ على أموالهم، وسلامة عقولهم.

٢ - عادة التفاحش في وصف النساء وعلاقاتهم معهن^(٢):

تحدث شعراء المعلقات عن النساء وتغزلوا فيهن ووصفوهن بأوصاف حسية مثيرة، وقد تباينت أحوالهم في هذا الأمر فمنهم من طرق هذا الأمر طرقاً خفيفاً ولم يتعمق فيه مثل: طرفة، وعنترة، ومنهم من تجرأ على هذا الأمر مثل امرئ القيس، فحياة الترف والنعيم والفرغ التي عاشها في شبابه قد قادتته إلى هذا الفحش وهذا الفسق ويسرت له سبل المجون.

ومنهم من شغله الصلح بين الناس عن هذا الأمر، وهناك فريق آخر شغلته الحروب وحب الشهرة والزعامة في العرب فيمكن لنا أن نقول: إن هناك كثيراً من شعراء المعلقات - غير امرئ القيس - قد انشغلوا بأمور خاصة، أو عامة جعلتهم لا يسرفون - في معلقاتهم - في الحديث عن النساء وأوصافهن وقد لا يذكرون النساء أصلاً، وسيأتي بيان ذلك في موضعه من البحث.

(١) تراجع الأحاديث الواردة في تحريم الخمر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري في ج ٨ ص ١٢٦ : ١٣٥، وج ١٠ ص ٣٣ : ٣٥، وج ١١ ص ٤٢ : ٤٤ .

(٢) التفاحش هو الإتيان بالفحش وإظهاره، والفاحشة هي: كل ما اشتد قبحه من الذنوب قولاً، أو فعلاً. يراجع فتح الباري ج ١ ص ٦٩ وتراجع المادة في: لسان العرب والقاموس المحيط.

أما امرؤ القيس فهو . وحده . الذى فقا عين الشعر فى هذا الأمر، وناب عن الشعراء فى هذا العهر، وقد حاول بعض الشعراء أن يقلده بيد أنه لم يبلغ مبلغه .

وامرؤ القيس كان يتعهر، ولا يستتر، وقد عاش حياة ماجنة لاهية لا يتورع فيها عن الإثم، قال عنه ابن قتيبة: (وكان يعد من عشاق العرب والزناة) ^(١) .

ليس بالأمر العجيب . إذا . أن نقرأ فى معلقة امرئ القيس عن تلك المغامرات التى عاشها مع نساء مثله فى المجون؛ فمن عادة الماجنات . فى كل زمان ومكان . أن يملن إلى الرجال المترفين المشهورين خاصة إذا اجتمع فيهم صفتا العهارة والجسارة، وعاهرات الجاهلية لم يكن عندهن دين يمنع، ولا شرف يردع!

وشعراء الجاهلية أكثروا من الحديث عن النساء ومغامراتهم معهن وأوصافهم لهن؛ لأنهم كانوا يرون فى ذلك ضربا من المتاع الحسى وكانوا يعدونه دليلا على الفتوة، فهم يتمدحون بقدرتهم على الوصول للمرأة، وأخذ ما يريدونه منها، وكانوا وثنيين ليس لهم دين يردعهم ^(٢) .

ومن أسباب مجونهم مع النساء حياة الفراغ والكسل التى عاشوها فى جاهليتهم، فلم يعيشوا حياة الهموم، والجد التى عاشها من بعدهم إلى يومهم هذا، وكيف يحصل جد فى الحياة إذا خلت من الدين والعمل!؟

(١) الشعر والشعراء ص٥٢، ويراجع العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف

ص٢٣٨ : ٢٥٢ .

(٢) العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ص٢١٤ .

ولم يتحدث عنه أيضا ليبيد بن ربيعة، وذكره طرفة في حدود ضيقة، وكذلك كان حال زهير، وعنترة، أما الذي أكثر من ذكره فهو الحارث بن حلزة، حتى لتكاد ترى ذكر الظلم هو أكبر شيء استحوذ على معلقة الحارث الذي رأى أن قبيلته بالذات هي المعنية . دون قبائل العرب . بجرائر وذنوب غيرها !!

وقد تحدث عمرو بن كلثوم عن الظلم والحروب الطاحنة والأيام العصبية التي دارت بين العرب في الجاهلية، لكنه كان يتحدث بلغة العزة والكبرياء والأنفة والشموخ، والسبب وراء ذلك راجع إلى الظروف التي قيلت فيها معلقته .

وأرى أن كثرة الحديث عن الظلم أو قلاته في معلقة ما خاضع للظروف التي قيلت فيها المعلقة، وخاضع . أيضا . لطبيعة الشاعر وأحواله الخاصة، فزهير قال معلقته في مقام الصلح الذي جرى في العرب ونال إعجاب الشاعر، وزهير فيه تعقل وحكمة وتفهم للأمور، فالمناسب أن يمدح من سعى في الصلح ويعطى حكما عامة وإذا أشار إليه فلتنك الإشارة في صالح الموضوع العام للمعلقة وهكذا فعل، أما طرفة فكان شابا صغير السن لم يرتو بعد من حكم الشيوخ ولم ينظر للأمور نظرات ثاقبة من بعيد فانشغل بما ينشغل به الشباب في العادة من الغيرة التي قد تقع بينه وبين قريب له في سنه أو يقاربه، فيحسب أن علاقة قريب له أو جار له كانت ظلما، وقد يكون الأمر كما حسب، لكن على كل حال محيط الظلم عنده ضيق كما قلت، وأعنى بذلك أنه لم يخرج خارج نطاق القبيلة أو العائلة أو حتى البيت الواحد!

أما ليبيد بن ربيعة فموضوع معلقته كان في الحديث عنه هو بأخلاقه وكرمه وبدأوته التي عاشها محبا لها، وما صاحب ذلك من الحديث عن الخمور غالية الثمن وكيف كان وجود بها وجرى شيء من كلامه في الغزل فليس إذا أمامه مجال لذكر الظلم، ويبدو أنه لم

وقال: **ثَوِّقُوا وَوُزِّ الشورى/ ٤٠** ويكفى كل عاقل له أذن تسمع
يكفيه أن يقرأ قول الله: **ثَوِّقُوا** □ □ □ □ **ي** **ي** **ث** الشعراء/ ٢٢٧

وفى السنة النبوية جاءت الأحاديث، تحرم الظلم وتخوف من
عواقبه الوخيمة، وتبين أنه ظلّمت يوم القيامة^(١).

ويدعو رسول الله (ﷺ) إلى العدل، والحق ويبين أن الظلم وترك
العدل يؤذّن بالهلاك والدمار، وذلك فى رده الشديد على أسامة بن زيد
فى شأن المرأة المخزومية^(٢).

وقد حرص صحابة رسول الله (ﷺ) وخلفاؤه الراشدون على إقامة
الحقوق، وردّها إلى أصحابها مهما كان شأن المعاند^(٣).

أرأيت عظمة هذا الدين؟ أرأيت كيف أزاح الظلم من دنيا الناس
بعد أن كانوا أشبه بأسود الشرى؟!!

٤ - عادتهم عند الموت:

نقرأ عند بعض شعراء المعلقات تصويراً معيناً للموت، وأحوالاً
عجيبة عنده، فهذا زهير بن أبى سلمى يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من **تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم^(٤)**
تص

(١) راجع هذه الأحاديث فى فتح البارى ج٥ ص١٢٠ ويراجع صحيح
مسلم ج١٦ ص١٣٤ .

(٢) راجع خطبة الرسول ورده (ﷺ) لأسامة بن زيد بقوله: (إنما أهلك الذين
كانوا قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم
الضعيف أقاموا عليه الحد...) فى فتح البارى ج١٢ ص٨٩ وصحيح مسلم
ج١١ ص١٨٦ : ١٨٨ .

(٣) راجع أول خطبة خطبها الصديق أبوبكر حين ولى الخلافة فى
إعجاز القرآن للباقلانى ص١٥٥ .

(٤) يراجع البيت فى معلقة زهير .

وهذا فهم خاطئ؛ لأن الموت قدر محدد الزمان والمكان، قال الله تعالى: **ثُمَّ تَأْتِيَةٌ هَاجَةٌ يَوْمَ هُتِ بِطِغْرَةَ** ٣٤ .

وطرفة يقول:

أرى الموت يعتام الكرام
ويصطفى طفي . ∴ عقيلة مال الفاحش المتشدد^(١)

والموت لا يختار ولا يصطفى الكرام على فهم طرفة والجاهليين غيره .

وهناك من أصحاب المعلقات، من فهموا الحقيقة فأعلنوها للناس .

قال لبيد :

إن المنايا لا تطيش
س س هامها^(٢)

وقال عمرو بن كلثوم:

وإنا سوف تدركنا المنايا . ∴ مقدرتنا ومقدرينا^(٣)

فهو يعلم أن الموت يقع حين يقدره الله، ولا يكون خبط عشواء كما ذكر زهير، ولا يعتام أحدا كما ذكر طرفة .

(١) يراجع البيت في معلقة طرفة .

(٢) يراجع البيت في معلقة لبيد .

(٣) يراجع البيت في معلقة عمرو بن كلثوم .

وظرفة يدعو ابنة أخيه أن تشق عليه الجيب حين يموت وهذه دعوى جاهلية حرّمها الإسلام . قال رسول الله (ﷺ) : (ليس منا من شق الجيوب) ^(١) .

وكانت لهم عادة جاهلية أخرى وهى: (البلية) التى ذكرها لبيد، والحرث بن حنزة ^(٢) .

والبلية كما قال الشراح وأصحاب المعاجم هى: الناقة التى تعصب عيناها وتربط على قبر صاحبها فلا تأكل ولا تشرب حتى تموت، يتركونها . فى زعمهم . ليركبها صاحبها بعد خروجه من القبر فيحشر عليها .

وأظن أن هذه العادة كانت مقصورة على الزعماء والمشهورين فالناقة تبقى على تلك الحالة . تعبيراً عن الحزن الشديد . حتى تموت . أو كانت هذه عادة خاصة بالقبائل العربية التى كانت تؤمن بالبعث والحساب، وقد ذكر زهير هذا المعتقد فى قوله:

فلا تكتمن الله ما فى صدوركم . : . ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يوخر فيوضع فى كتاب . : . ليوم الحساب أو يعجل فينتقم ^(٣)
فيـدخـر

٥ - عادات: التمام، والوشم، والميسر، والأزلام:

تحدث شعراء المعلقات عن عادات أخرى كثرت فى الجاهلية من

ذلك:

التمام: التى ذكرها امرؤ القيس فى قوله:

فألهيتهـا عن ذى تمام

مـحـول ^(١)

(١) يراجع الحديث فى فتح البارى كتاب الجنائز ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) سيأتى بيان ذلك كله عند دراسة هذه العادات من خلال المعلقات .

(٣) يراجع البيتان فى معلقة زهير بن أبى سلمى .

والتمايم: جمع تميمة وهي خرزة تنظم في سير وتعلق على الصغار، كانت عادة في الجاهلية، ينفون بها النفس والعين بزعمهم، فأبطلها الإسلام، وجعلها ابن مسعود (رضي الله عنه) من الشرك؛ لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموت وأرادوا دفع ذلك بها، وطلبوا دفع الأذى من غير الله، الذي هو دافعه، فكأنهم جعلوا له شريكا فيما قدر وكتب من آجال العباد والأعراض التي تصيبهم^(٢).

وقد نهى الرسول (ﷺ) عن ذلك وحرمه ودعا على فاعله في قوله: (من علق تميمة فلا أتم الله له)^(٣).

الوشم^(٤): وكان عادة مشهورة في الجاهلية وهو: ما تجعله المرأة على نراعيها بالإبرة ثم تحشو ذلك بالنؤور وهو دخان الشحم... وذلك أن المرأة كانت تغرز ظهر كفها ومعصمها بإبرة أو مسلة حتى يؤثر فيه، ثم تحشوه بالكحل أو النيل أو النؤور فيزرق أثره أو يخضر وقد نهى الإسلام عن ذلك، وحرمه. قال رسول الله (ﷺ): (لعن الله الواشمة والمستوشمة)^(٥).

الميسر والأزلام^(٦): وكان من عادات العرب في الجاهلية، الميسر وهو: القمار، أو الجزور التي كانوا يقامرون عليها، وكانت لهم طريقة خاصة في ذلك.

(١) يراجع البيت في معلقة امرئ القيس وسيأتي تفصيل الحديث عنه في حينه.

(٢) يراجع اللسان، والقاموس المحيط مادة: تمم.

(٣) يراجع الحديث في فتح الباري ج٦ ص٣٤٨.

(٤) سيأتي الحديث عنه عند ذكر الصورة في هذه العادة من خلال الشعر.

(٥) الحديث في فتح الباري ج١٠ ص٣٩١ : ٣٩٣ وصحيح مسلم ج١٤ ص١٠٢.

(٦) سيأتي تفصيل ذلك عند الصورة البيانية في هذه العادة.

منها كى لا نفع جميعا أو فرادى تحت خطأ التقليد جهلا أو عمدا، وهذا الخوف الشديد والتحذير الأكد كان سببا ملحا من أسباب كثيرة دعتنى إلى اختيار هذا البحث .

ونعش الآن مع شعراء المعلقات لنرى كيف كان بيانهم وتصويرهم لهذه العادات وكيف امتاز كل شاعر فى أسلوبه وكيف كان كلامه دليلا على بلاغته، ومهارته البيانية على الرغم من أنها عادات واحدة فى بيئة واحدة .

المبحث الأول عادة شرب الخمر

كثر في المعلقات الحديث عن الخمر، فشعراء المعلقات جميعاً ذكروا الخمر عدا شاعرين اثنين خلت معلقتهما من ذكر الخمر، وهما: زهير بن أبي سلمى، والحارث بن حلزة، ولعل سبب عدم ذكر زهير للخمر أنه قال معلقته وهو كبير السن مشغولاً بالحديث عن الصلح الذي أطفأ نار الحرب، فأخذ يمدح السلام ويشيد بالحارث بن عوف، وهم بن سنان، وأنه كان وقوراً عفيفاً فلا يناسب هذه الحالة أن يذكر الخمر، أما الحارث بن حلزة فقد كان مشغولاً بالموقف الطويل الذي وقفه أمام الملك عمرو بن هند يدافع ويذود عن قبيلته بنى بكر ويرد على عمرو بن كلثوم التغلبي، فليس للخمر قيمة ولا أهمية في مقامه ذلك .

ونبدأ بهذه الصورة الفريدة التي وصف فيها امرؤ القيس (مكاى الجواء) في قوله:

كان مكاى الجواء غديّة .: صبحن سلاقاً من رحيق مففل
وهذا البيت ورد في سياق الحديث عن المطر وكيف كان أثره على (ثبير)، و(رأس المجيمر)، و(صحراء الغبيط)، وكيف امتد تأثيره في الطير، والسباع!!

إن امرأ القيس ينقلنا في هذا البيت إلى تلك الأماكن السعيدة بذاك السحاب الباكر والرائح، الذي كان يسقى مطره كل شئ، ثم يصور لنا سعادة ونشوة (المكاى) وهو: نوع من الطير مفردة مكاء وهو طير صغير الحجم كثير الصغير، إن حركة هذا الطير وسط هذا المطر وسعادته به في هذه الأرض (الجواء) أى الواسعة التي تحرك فوقها حراً طليقاً، أو في هذا الوادى بالذات، في هذا الوقت من النهار

(غدية) تصغير غداة أو غدوة، كل هذا أثار عاطفة امرئ القيس،
واستدعى ذكرياته^(١).

إنه أعجب بهذا الطير، وأراد أن يخلق معه فوق صحراء نجد في
هذه الأحوال السعيدة؛ ليشاركه نشوته وسعادته، فقد أحس إحساساً
عميقاً بحال هذا الطير وأراد أن يصور لنا حاله، فأتى بصورة فريدة في
الشعر العربي حيث شبه طير المكاكى في حركته وصوته ونشوته بمن
شربوا الخمر في الصباح، واختار للخمر صفات خاصة لها دلالة
عميقة في التصوير، فهي: سلاف: أى جيدة عالية الجودة؛ فالسلاف:
أول ما انعصر من الخمر، أو هو: ما انعصر من العنب من غير
عصر، وهى: من رحيق مفلفل، والمفلفل هو: ما وضع فيه التوابل
والفلفل حتى أثر في اللسان!! وهذه أوصاف دقيقة كما قلت؛ لأن طير
المكاكى لا يتوقف عن الغناء فكأن لسانه تأثر بالفلفل الذى في الخمر،
وطير المكاكى نشيط في حركته وفيه نشوة ومرح فكأنه شرب السلاف!!
ومن تأمل الصورة أدرك أن امرأ القيس لم يقصد أن يشبه هذا الطير
بمن شربوا الرحيق المفلفل بل جعلها كأنها هى التى شربته بالفعل^(٢).

إنه لا يريد أن يشبهها بغيرها ممن شربوا الخمر؛ لأن غيرها لا
يرقى لحالتها وطربها وطيرانها ولكنه بالغ فجعل هذا عادة من عاداتها
في هذه الأوقات وهذه الأودية بالذات .

(١) يراجع شرح البيت في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن
الأنبارى ص ١١٠ : ١١٢ وشرح المعلقة السبع للزوزنى ص ٤١
والمعلقة العشر شرح الدكتور/ عبدالعزيز محمد الفيصل ج ١
ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) يقول الزوزنى (كأن هذا الضرب من الطير سقى هذا الضرب من
الخمر صباحاً في هذه الأودية) شرح الزوزنى ص ٤١ وفهمه أدق
من فهم ابن الأنبارى. راجع شرح ابن الأنبارى للبيت ص ١١٠ وما
بعدها .

وهذه صورة دقيقة تحتاج إلى تأمل، فهو . كما قلت . لا يريد أن يشبه هذا الطير بغيره، ولكنه أراد أن يشبهه بنفسه في حالة خاصة وهي: صبحن سلافا من رحيق مفلقل .

وهذه الصورة النادرة تتوافق مع امرئ القيس الذي شرب الخمر وأحسها وحقق بها أهواء وغايات، فهي صورة قريبة من نفسه يعتادها ويألفها، فكأنه يبوح بما في داخله هو، إنه حين رأى الطير مغردا راقصا سعيدا اشتاق إلى أن يسعد ويلهو ويضطرب فأتى بما أتى به من تصوير لا يرى سعادة فيما سواه!!!

وبهذا نرى كيف دل الكلام على صاحبه، وكيف أظهر ما يستره بداخله، وهذه الصورة الفريدة في الشعر العربي كله . فيما أعلم . دليل على صفة ثابتة كانت من مكونات شخصية امرئ القيس وهي: عشقه للخمر .

وهذا طرفة بن العبد يصور لنا حاله وما آل إليه أمره من جراء شرب الخمر فيقول:

وما زال تشرابي الخمر
ولذتي
وبيعى وإنفاقي طريفى ومتلدى
إلى أن تحامنتى العشيرة كلها
وأفردت أفراد البعير المعبد

إنه أسرف في شرب الخمر وتعود عليها حتى باع وأنفق في سبيل ذلك كل ما يملكه من مال طريف: أي مستحدث، وتليد: أي قديم موروث حتى تحامته أي: تجنبته واعتزلته، عشيرته كلها: أي قبيلته وأهله المقربون، ويصور لنا هذه العزلة وهذا الكره والاستقباح بصورة مألوفة في بيئته العربية وهي: صورة البعير المعبد أي: الذي طلى بالقطران بسبب جريه، وهذا البعير عزل عن الإبل السليمة حتى لا يعديها، وكذلك طرفة عزلته وأقاربه وكل قبيلته فصار وحيدا بعيدا؛ حتى لا يعدي أحدا من أفراد قبيلته ، فيفعل فعلته^(١) .

إن هذه الصورة التي اختارها طرفة لنفسه تبرز لنا ما أحسه من ضياع فقد أهلك كل شيء، وتبرز . أيضا . حبه وتعلقه بقبيلته التي تحبه قويا ثريا متواجدا في حلقة القوم ومجالس زعمائها .

إنه أحس بألم ومرارة العزلة عن الناس فتوجع وتمنى في قرارة نفسه لو أقطع عن هذا الداء الذي سقط فيه متأثرا بتلك العادة القبيحة التي فشت في زمانه رمزا للكرم والثراء. وكأنني به يرفض ذلك في نفسه ويمدح قبيلته التي تحامته؛ لأن الصورة التي اختارها وإن دلت على التنفير والتفويض لحاله عند الناس فهي تدل أيضا على قبح حاله عند نفسه .

وينقلنا طرفة إلى صورة أخرى تبرز علاقته بالخمر فيقول:

نرينى أروى هامتى فى حياتها .
مخافة شرب فى الحياة مصدر

(١) يراجع معنى البيت فى شرح ابن الأنبارى ص ١٩١، ١٩٢ وشرح الزوزنى ص ٥٩ .

إنه يخاطب إحدى النساء يقول لها: اتركيني ارتوى من هذه الخمر قبل أن أحرم من ذلك^(١).

وهذه صورة ساذجة، سطحية، لا عمق فيها، ولا فكر، ولا جمال ، إننا لا نكاد نجد فرقا بين قوله هذا وبين قول العوام اليائسين من الحياة: متع نفسك قبل الموت، أو قول بعض الجاهلين: شىء يعدل المزاج، أو يضبط الرأس .. وهكذا مما نسمعه فلا نهش له ولا نبش، وهو تعبير واضح الدلالة على لهو الشباب وطيشه، وطرفة لم يقصد أن يروى رأسه فقط، بل يريد أن تعم السعادة والنشوة بالخمر جسده كله إلا أنه عبر بالرأس هنا؛ لما جرى عليه عرف التخاطب فى هذه الأحوال؛ ولأن الرأس فيها الدماغ وهو محط المزاج فى الجسد، فكلامه على المجاز المرسل بعلاقة الجزئية؛ لبيان أهمية الهامة ومدى تأثير الخمر فيها .

وحين نقرأ هذا البيت ونعيد قراءته لا نجد عمقا فى الصورة ولا روعة فى التعبير، وقد كان علماؤنا على صواب حين أهملوا رواية هذا البيت وحين رواه بعضهم ونبه على ضعفه، فهو كلام مبتذل مغسول!!!

ثم يذكر لنا طرفة صورة أخرى تظهر إسرافه، وحبه للشهرة على عادة الشباب فى مثل عمره فيقول:

وقال: ألا ماذا ترون بشارب .: شديد عليكم بغيه متعمد

(١) هذا البيت ليس موجودا عند الزوزنى، وذكره ابن الأنبارى، وقال عند شرحه لهذا البيت: (قال أبو جعفر: لا أعرف هذا البيت فى قصيدة طرفة)، وقد كانوا على صواب - رحمهم الله - فلا تجد فى هذا البيت سمت الشعر الجاهلى. يراجع شرح ابن الأنبارى ص ١٩٨ .

والقائل الذى عناه طرفة فى هذا البيت هو أبوه، وهو الذى ورد ذكره فى قوله قبل هذا البيت:

عقيلة شيخ كالوبيل يلندد

فقد وصف أباه بكبر السن، والضعف، ونحول الجسم حتى صار مثل (الوبيل) وهى: العصا الطويلة الغليظة، وهو مع ذلك (يلندد) أى: شديد الخصومة والغضب؛ لأن طرفة أباد ماله أو كاد وعقر الناقة الحبلى، وهى من أنفاس الإبل عند العرب، قال طرفة:

فضل الإمام يمثلن حوارها

أى: يشوين الحوار وهو: ولد هذه الناقة الذى نبحت أمه ثم أخرج من بطنها، فهن يشوينه فى الملة وهى: الرماد الحار والجمر وموضع النار^(١).

إذا كان هذا حال طرفة مع أنفاس الإبل يعقرها ويترك الإمام يمثلن حوارها ثم يدار عليهم بالسديف المسرهد، أى: قطع السنام السمينة حسنة الطعم، وإذا كان منفقاً لكل أمواله فى الخمر فلا عجب أن يجمع أبوه أفراد عشيرته ويقول لهم ما حكاه طرفة عنه فى قوله: وقال: ألا ماذا ترون بشارب .: شديد عليكم بغيه متعمد

إن أباه قد يئس منه، وفاضت همومه من أجله، فجمع عشيرته ليأخذ رأيهم فى طرفة، ما رأيكم فى هذا الشارب؟ وهو يقصد طرفة والكلام كناية عن إدمانه الخمر وشهرته فى القبيلة بذلك، فأبوه يصوره فى هذه الصورة وهو ينهل بل، يعل من الخمر، وأبوه يعلم أن بغيه شديد وأنه شاب تعمد فعل ذلك، وسواء أكان الاستفهام على حقيقته،

(١) تراجع الأبيات وشرحها فى شرح ابن الأنبارى ص ٢١٩ : ٢٢٢ وشرح الزوزنى ص ٦٧، ٦٨ .

وأنه عاجز عن التصرف لا يدرى ماذا يفعل بابنه، أم كان الاستفهام بمعنى التعجب والإنكار لحال ابنه، وقد يرشد إلى ذلك قوله: شديد عليكم بغية متعمد، فالكلام كله دليل واضح على إسراف طرفة وتعمره هذا التبذير، على عادة الشباب الذين يسرقون أموال آبائهم وينفقونها على أصدقائهم ليقال عنهم كرماء، ولا تجد ذلك فى كبار السن ولا فى العقلاء!

فحديث طرفة عن الخمر دليل على شبابه وعدم إدراكه لقيمة المال وطرق إنفاقه .

وننتقل إلى عنتره بن شداد لئرى قصته مع الخمر، وتصويره لها ونبدأ بقوله:

وخلا الذباب بها فليس ببارح .: غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه .: قدح المكب على الزناد الأجذم

وهذه الصورة التى ذكرها عنتره للذباب وتغريده بتلك الروضة الأنف وأنه يشبه الشارب المترنم، وردت فى سياق الحديث عن عبلة وأوصافه لها، فقد سبته أى: ذهبت بعقله بما فيها من روائع الحسن والجمال، فهى جميلة الفم غروب الأسنان ، أى فى أسنانها أشر وهو التحزيز الذى يكون فى أسنان الشواب، وهذا يدل على صغر سنها ، ثم هو يشبهها بالروضة الأنف فى قوله:

أو روضة أنفا تضمن نبتها .: غيث قليل الدمن ليس بمعلم

والروضة: هي المكان المطمئن يجتمع إليه الماء فيكثر نبتة،
والأنف هي التي لم ترع بعد^(١).

وتشبيهه عبلة بالروضة الخضراء اليانعة التي لم ترع ولم يدخلها
أحد من الناس أو الدواب، فيه دليل على نضارتها وحسنها وقبول
نفسه لها وميله الشديد نحوها؛ فالنفس دائما تعشق الخضرة وتنتشى
حين تراها؛ لأنها دليل على الخصب والحياة ولهذا شبه الرسول (ﷺ)
المال بها في قوله: (إن هذا المال خضرة حلوة)^(٢).

وذكر عنتره للذباب بهذه الأوصاف الدقيقة في هذه الروضة
الأنف يحتاج إلى تأمل طويل، ولنا أن نتساءل لماذا الذباب بالذات؟
وكيف شبهه بالشارب المترنم والأجزم المكب على الزناد؟ أكان عنتره
يعرض بأهل عبلة الذين ارتحلوا وفارقوه فأزعجوه وأخذوا حبيبته التي
تشبه الروضة الأنف لتحل بأرض الزائرين وتكون لمن هو دونه فيتمتع
بها وما هو إلا ذناب حولها، وإذا كانت الروضة أنفا فعبلة بكر في كل
شء حتى الهوى!، أم أنه كان يلمح أن قلبها بدأ يميل وبدأت أمارات
الحب والعشق تسرى بينهما في خفوت وهدوء وصمت فما دار بينهما
خفى كصوت الذباب وحركته الهادئة، فلا أحد يدرك ذلك غيرهما، أم
ماذا كان يقصد الله أبوه؟!، إن صورة الروضة والذباب وحركته فيها وما
أضفى عليه من أوصاف تحتاج منا إلى أناة وتركيز خاصة أنها جاءت
من رجل عشق الحروب وقرع طبولها وبريق سيوفها لكن على كل حال
لا نعجب من رجل مثل عنتره في شجاعته وبطولته أن يكون عميقا في

(١) تراجع تلك الأبيات وشرحها الطويل في شرح ابن الأنباري
ص ٣٠٧ : ٣١٣ وشرح الزوزني ص ١٣٩، ١٤٠ .
(٢) ورد هذا الحديث في مواضع مختلفة في فتح الباري: ج ٤ ص ٩٧
وج ١٣ ص ٣٩ تحت رقم / ١٤٥٤ ويراجع شرح أحاديث من
صحيح البخاري للدكتور/ محمد أبو موسى ص ٢٥٦ : ٢٥٩ .

حبه وإحساسه وحيائه؛ فالرجل العظيم فى ساحات القتال عظيم أيضا فى حبه وعشقه، والرجل الشجاع المغوار الذى يهابه الناس هو نفسه كثير البكاء والتأثر أمام الأشياء التى تمس القلوب والمواجيد، ولا يمكن أن يقع فى قلوب عظماء الرجال ما يرققها مثل الحب الصادق خاصة للمرأة العفيفة التى يجد فيها الرجل العظيم الحنان والأمان وحفظ ذريته حفظا أمينا فى حياته وبعد مماته .

وصورة عنتره للذباب وغنائه وفرحه فى هذه الروضة قريبة جدا من الصورة التى ذكرها امرؤ القيس لمكاى الجواء؛ فالذى أراداه قريب للغاية، فالطير فى صورة امرئ القيس غنى ورقص والذباب فى صورة عنتره غنى ورقص، وكلاهما صور المشبه فى صورة من شرب الخمر، وقد كان ابن الأنبارى . رحمه الله . موفقا فى فهم ما أراداه عنتره فقال: (وخلا الذباب معناه: قد خلا هذا المكان له، فليس فيه شىء يزاحمه ولا يفزعه فهو يصوت فى رياضه ... والتغريد التطريب ... مد الصوت بالغناء .. وقوله: كفعل الشارب المترنم، أراد مغردا كتغريد الشارب أى: كغنائه، والمترنم الذى يطرب قليلا قليلا لا يرفع صوته، والهزج: خفة وتدارك)^(١).

وهو أراد من ذكره لصوت الذباب وحركته أن يؤكد هدوء وسكينة هذه الروضة، فأنت لا تسمع صوت الذباب ولا يمكن أن ترى حركته التى ذكرها عنتره إلا إذا خلا المكان وهداً تماما حتى يصير الذباب على الهيئة التى ذكرها عنتره، ولهذا أكد تلك الصورة بقوله:
هزجا يحك ذراعه بذراعه .: قدح المكب على الزناد الأجذم

(١) شرح ابن الأنبارى ص٤٣١، ٣١٥ .

إنه يشبه الذباب إذا سن ذراعه بالأخرى برجل أجزم أى: مقطوع اليد قاعد يقده الزندين بذراعيه^(١).

ومما لا شك فيه أن دقة التصوير عند عنتره تجعله قادرا . لو أراد . على ذكر أوصاف حسية للمرأة لا تقل عن أوصاف امرئ القيس لكن حياؤه وعفته منعاه من فعل ذلك .

وفى معلقته بيتان تحدث فيها عن الخمر ويبرز فيهما شيء خاص قد يفيدنا فى فهم شخصية عنتره وهما قوله:

ولقد شربت من المدامة . . . ركذ الهواجر بالمشوف المعلم
بـ_____دما . . . بزجاجة صفراء ذات أسرة . . . قرنت بأزهر فى الشمال مقدم

قال ابن الأنبارى (خص ركود الهواجر؛ لأنه أراد: كنت منعما، وهذا الوقت وقت النعمة فى شدة الحر)^(٢) ومعلوم أن العرب كانت تفتخر بشرب الخمر؛ لأنه دليل على الجود^(٣).

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٣١٥ وشرح الزوزنى ص ١٤١

(٢) شرح ابن الأنبارى ص ٣٣٧ .

(٣) يراجع شرح الزوزنى ص ١٤٥ .

والمأمل فى هذين البيتين يلوح له أمر يتعلق بشخصية عنتره ويبدو هذا ظاهراً فى قوله: (بعدما ركد الهواجر) إنه يريد أن يقول: إنه أحب الخمر وشربها تمتعا بها حتى فى الوقت الذى يرقد فيه الناس، فليس همه الشهرة والظهور أمام الناس بل هو يفعل ذلك ليمتع نفسه بما أحبه وحرص عليه .

وقد يدل قوله السابق على يقظته وأنه متنبه دائماً فى كل الأحوال حتى وقت الهجير حين يرقد الناس .

ولا يبعد عندى أن يدل كلامه هذا على رواسب قديمة فى نفسه من إحساسه بالعبودية القديمة التى تركت أثرها عليه فلم يشأ أن يشرب الخمر فى جماعة الناس .

وقوله: بالمشوف المعلم يدل على أنه كان يدفع ثمن الخمر من ماله هو ولا يشرب الخمر من مال غيره، وسواء أكان المشوف المعلم هو: الدينار المجلو الذى برزت كتابته أم كان البعير على حد فهم ابن الأعرابى، فيبقى الكلام دليلاً على إنفاقه مما يملك والكلام كناية عن كرمه وتمتعه بالخمر، والمدامة هى: الخمر التى أديمت فى الدن، أى: طال مكثها فيه حتى صفت ورقت وكلامه بعد ذلك: (بزجاجة صفراء) دليل على صفاتها وصفاء الإناء الذى أخذ لونها^(١) .

والخمر تمدح حين تصفو وترق وتوضع فى إناء يظهر لونها، قال الصاحب بن عباد:

رق الزجاج وراقت الخمر .: فتشابها فتشاكل الأمر
فكأما خمر ولا قدح .: وكأما قدح ولا خمر^(١)

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٣٣٨ .

(٢) يراجع بغية الإيضاح لعبدالمعتل الصعدي ج ٣ ص ٤٢ طبع مكتبة الآداب الطبعة العاشرة سنة ١٤٢٠ هـ .

ثم مدح عنترة الخمر بطريقة أخرى فقال: (قرنت بأزهر فى الشمال مقدم) فهى فى إبريق لامع لعله كان من فضة، وهى مشدودة الفم بغطاء محكم، أو عليها الفدام الذى تصفى به الخمر كما تشرب الملوك، وكل هذا دليل على كرمه وحبه للخمر فقد حرص عليها واشتراها بخالص ماله وشربها وقت ركود الهواجر^(١).

وهذا عمرو بن كلثوم يبدأ معلقته بالحديث عن الخمر ويطنل فى وصفها ويرى أنها تفعل بشاربها أفعالها فيقول:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا .: ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشة كأن الحص فيها .: إذا ما الماء خالطها سخينا
تجور بذى اللبانة عن هواه .: إذا ما ذاقها حتى يلينا

إن عمرا ينبه الساقية ثم يأمرها أن تقوم من نومها حاملة هذا الصحن وهو: القدح الضخم الواسع لتسقيه الصبوح وهو: الخمر الذى يشرب فى الصباح، وينهاها عن أن تبقى شيئا من الخمر لغيرهم، إنه يريد أن يشرب من يدها كل خمور الأندرين .

والأندرين: قرية من قرى الشام كثيرة الخمر، ثم أخذ يصف تلك الخمر فقال: (مشعشة كأن الحص فيها) فهو يقصد أنها ممزوجة بالماء برفق، وهى مع مزجها بالماء تبقى حمراء كأنها ألقى فيها ذلك النبات الأحمر المسمى بالحص، وهذا كناية عن جودتها وأنها بقت طويلا فى دنها حتى صارت عتيقا، ولا يمزج بالماء إلا الخمر المعتقة .

ثم وصفها بصورة أخرى فى قوله: (تجور بذى اللبانة عن هواه)، إنه يصور الخمر بشخص له أثر وقوة فهو يأمر وينهى ويصل لما يريد وهذه الصورة تبرز لنا المنهج النفسى عند العرب فى رؤيتهم للخمر وشدة تأثيرها فيهم، فهى ذات قدرة بالغة فى التأثير حتى على

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٣٣٨ .

أولئك الزعماء الكبار، فهذا الوصف مع إيجازه يبرز لنا ما استقر في عقول عرب الجاهلية من صفات الخمر، ولعل هذا يفسر لنا كثرة شربهم لها فهي (تنسى الهموم والحوائج أصحابها فإذا شربوها لانوا ونسوا أحزانهم وحوائجهم) ^(١) .

فكثرة شرب الخمر في مجتمع ما دليل على كثرة مشاكله وعجز عقول أهله عن إيجاد حلول لها، ومع هذا الوهم الذي تخيلوه لم تصلح من أحوالهم ولكن الذي أنقذهم هو الإسلام، ثم ينقلنا عمرو بن كلثوم إلى صورة نادرة في الشعر العربي، وهذه الصورة مع دلالتها على حبه للخمر وتعلقه بها تدل أيضا على معنى عميق قد لا يبدو ظاهرا في التركيب ولهذا لا بد من التأمل؛ لإدراك المعنى الذي أراده، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما رحن يمشين الهوينى .: كما اضطربت متون الشاربينا

(١) شرح الزوزنى ص ١١٨ ويراجع شرح ابن كيسان لمعلقة عمرو بن كلثوم ص ٤١ : ٤٦، وشرح ابن الأنباري ص ٣٧١ : ٣٧٣ .

إنه يشبه مشية النساء في حال التبخر والتثني والتدلل بمشية السكارى الذين اضطربت متونهم، والسكارى لا تضطرب ظهورهم فقط بل يضطرب كل شيء فيهم، ويختل توازنهم كله لكنه كان قديرا على استعمال اللغة وفهم أسرارها؛ لأنه أراد شيئا واحدا فقط، إنه أراد وصف حركة الأرداف في تلك النساء، فأتى بهذا التركيب من أجل هذه الدلالة، وقد تمكن من التعبير عما أراد بقدرة فائقة لا يصل إليها غيره، وهذه الدلالة قد فهمها بعض الشراح، قال ابن كيسان في شرحه لهذا البيت: (ومعنى هذا البيت: أنهن ذوات أعجاز، فإذا مسن في مشيهن تحركت متونهن بدفع أفعالهن بعضها بعضا فكأنهن يتمايلن لذلك) (١).

وقد كان فاجرا لكنه ليس على درجة امرئ القيس وقد حرم الإسلام هذه النظرة العميقة للمرأة وأمر المسلمين بغض أبصارهم، لكنه كان جاهليا فأطلق لنفسه العنان في أن يقول ما يشتهي، أو يعايشه، خاصة وأنهم جاهليون لا دين يردعهم ولا عمل يشغلهم، فانشغلوا في كثير من الأحيان بوصف النسوان .

وإذا كنا نقرأ في أشعار العرب تشبيهاتهم للمرأة بالنعجة باعتبار قرب المشية والتبخر بينهما، أو نقرأ تشبيهاتهم لها بالغزال؛ لأنها جانحة جامحة لا يمكن اصطياها بسهولة ... إلى غير ذلك من تشبيهات مألوفة استقرت عندهم وعند الدارسين أيضا، ثم يأتي عمرو بن كلثوم بهذه الصورة لمشية النساء فهي نادرة حقا .

وهذا لبيد بن ربيعة يذكر الخمر، لكن حديثه عنها يختلف عن سبقوه، ونشعر حين نقرأ كلام لبيد عن الخمر أنه شربها فخرا بالثراء والغنى، ولم يقصد غير ذلك ولهذا لم يجن بها كجنون غيره!
فهو يقول:

(١) شرح ابن كيسان لمعلقة عمرو بن كلثوم ص ١١ .

إنه في هذه الأبيات يخاطب نوار المرية التي أحبها غاية الحب يقول لها: (بل أنت لا تدريين) هناك يا نوار أمور في حياتي لا تعلمين عنها، منها: أنني أسهر الليالي التي طاب لي الهوى فيها في صحبة الندماء. وقوله هذا يدل على نفس سعيدة غير قلقة ولا ذات هموم، إنه يذكرها في تلك الأحوال السعيدة، وهو يذكرها بتلك الأوقات الطيبة متمنيا لو كانت هي التي في صحبته، ثم أخذ يكشف عن أخبار لياليه، وأحواله فيها فقال: (قد بت سامرها) أي: بقيت ساهرا فيها أشرب وأحدث ندمائي، (وغاية تاجر وافيت) وهو يقصد بغاية التاجر: الراية التي ينصبها تاجر الخمر ليعلم الناس بمكانه (وإنما سميت غاية؛ لأن أهل الجاهلية كانوا ينصبون راية للخيل تسمى الغاية، فإذا بلغها الفرس قيل: قد بلغ الغاية فصارت مثلا ... إنما ينصب الغاية للخمر من قد عرفت خمرة بالجودة، ثم تجعل الغاية علامة في غير الخمر، فيقال للشيء الجيد هو غاية من الغايات، أي علامة في جنسه) (١).

وقوله: (وافيت إذ رفعت وعز مدامها) يعنى وافيت الغاية وبلغت أقصى ما يمكن فعله في هذه الأحوال، فأتيت هذا التاجر حين رفع ثمن الخمر وقل وجودها، فهو يشتري الخمر إذا كانت عزيزة غالية الثمن ويقدمها لرفاقه، ولا يفعل ذلك إلا الثرى الجواد (٢).

وقد أكد هذا المعنى بقوله:

أغلى السبأ بكل أدكن عاتق .: أو جونة قدحت وفض ختامها
فهو يشتريها بثمن مرتفع؛ لأنها تستحق ذلك لجودتها وصفاتها
العالية فهي في (أدكن عاتق) أي: في زق عظيم أسود لم يفتحه أحد
سواه، وسواد هذا الزق إما لكثرة قدحه بالنار أو لأنه مطلى بالقار.

(١) شرح ابن الأنباري ص ٥٧٤، ٥٧٥ .

(٢) يراجع شرح ابن الأنباري ص ٥٧٥ وشرح الزوزني ص ١٠٩ .

والجونة: الجرة الكبيرة ذات العروتين التي يوضع فيها الخمر ويحفظ ثم قال: (قدحت) أي عرفت، فالقدح هنا الغرف (وفض ختامها) أي كسر غطاؤها، وقد ذكر الشراح أن في البيت تقدما وتأخيرا والتقدير: فض ختامها وقدحت؛ لأنه لا يمكن أن يغرف منها الخمر ما لم يكسر ختامها، فهو يمدح نفسه بأنه يقدم على شراء الخمر بأعلى الأثمان فتفتح له أختامها ولم تفض لأحد غيره، وكل هذا كناية عن كرمه وجودة هذه الخمر^(١).

وهو يشرب هذه الخمر الجيدة فرحا سعيدا يستقبل بها يومه إنه يقول:

باكرت حاجتها الدجاج
بسحره
لأعل منها حين هب نيامها

(١) يراجع شرح ابن الأنباري ص ٥٧٦، ٥٧٧، وشرح الزوزني ص ١٠٩، ١١٠، وشرح المعلقات العشر للدكتور/ عبدالعزيز محمد الفيصل ج ١ ص ٣٤٧.

إنه يعنى أن حاجته وحببه إلى هذه الخمر جعلته يقوم لشربها مبكرا، قبل صياح الديكة فى هذا الوقت، فهو يتعاطى الخمر قبل أن يصدق الديك، وهو يعمل منها أى: يشرب مرة بعد مرة حتى يرتوى فى وقت السحر حتى إذا هب الناس من نومهم وجدوه قد قضى من الخمر ما شاء^(١).

وكلامه هذا يدل على أنه كان يشربها متمتعا بها ومعنا عن كرمه وثرائه ولا يشربها وصولا لفاحشة أو ميسر أو غير ذلك من الأمور التى كانت تصاحب الخمر عادة فى ذلك الزمان . وهذه الدلالات لا تجدها عند الشعراء الآخرين ولذلك قلت: إن حديثه عن الخمر اختلف عن قبله .

ثم جاء بببيت آخر صريح فى دلالاته على أنه كان ذا ذوق خاص وإحساس مرهف وتمتع فوق العادة وتركيز يستحوذ على إعجابنا، كانت كل هذه الصفات فيه حين يشرب الخمر، فهو يقول:
بصبوح صافية وجذب كريئة .: بمؤثر تآتاله إبهامها

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص٥٧٧ وشرح الزوزنى ص١١٠

وهذا البيت دقيق وعميق الدلالة حقا، إنه يذكر أنه يشرب الصبوح الصافية في الوقت الذي يستمع فيه إلى غناء الكرينة، والكرينة هي: الجارية العوادة التي تمسك بالعود وتصلحه وتضرب عليه بإبهامها، وتغنى له أجمل الغناء، وهو يستمع بوعى شديد وتركيز أكيد، فهو مع هذا الشرب الكثير متنبه يقظان على التركيز لدرجة أنه وصف إبهام المغنية وكيف تصلح عودها وطريقتها الخاصة في الضرب عليه، ولا يستطيع ذكر هذه الأوصاف الدقيقة إلا رجل حاضر العقل والقلب معا^(١).

بعد هذا العرض لوصف شعراء المعلقات للخمر وتصويرهم لها نستطيع أن نقول: إن هناك ارتباطا وثيقا ودلالة واضحة بين الكلام وصاحبه، فكل صورة من صور أولئك الشعراء كانت تكشف عما بداخل قائلها وقد أوضحت ذلك في أثناء تحليل الصور.

ورأى الباحث أيضا . في بعض الأحيان . اقترابا شديدا بين صور الشعراء وهو اقتراب دلالات فقط لكن بقى لكل شاعر أسلوبه الخاص به، والذي دل دلالة تامة عليه .

(١) يراجع شرح ابن الأنباري ص ٥٧٩ وشرح الزوزنى ص ١١٠ .

المبحث الثانى عادة التفحش فى وصف النساء

لا يريد الباحث أن يذكر هنا كل ما دار من أوصافهم للنساء؛ لأن البحث اتخذ له طريقا معينا وهو: ذكر ما دار من أوصاف تدخل فى باب الفحش وهو: كل ما اشتد قبحه من الذنوب فعلا أو قولا، ويكون فيه العيب الذى يستحى منه كل شريف والذى جاء الإسلام بتحريمه ومعاقبة فاعله^(١).

أما الأوصاف التى تعود عليها عقلاء الناس فلن نذكرها فى البحث؛ لأنها ليست داخلية فى عنوانه بالمفهوم الذى قصدناه، وأود أن أشير قبل تحليل تلك الصور إلى أن هناك ثلاثة من شعراء المعلقة لم أجد عندهم ما يدخل فى باب الفحش فى أوصاف النساء وهم: زهير بن أبسلمى، ولييد بن ربيعة، والحارث بن حنظلة؛ ولعل الظروف التى نظموا فيها قصائدهم هى التى حالت بينهم وبين ذلك، أو لعل ذلك يرجع إلى طبائع نفوسهم وما جبلت عليه من حياء وأدب.

وقد بدت لنا فروق واضحة فى وصف أصحاب المعلقة للمرأة وسنذكر ذلك إن شاء الله فى أثناء تحليلنا لتلك الصور.

ونبدأ بامرئ القيس الذى تحدث كثيرا فى معلقته عن النساء ومغامراته معهن، وكان ينعى على نفسه ويتعهر كما قال ابن سلام^(٢).

من ذلك قوله:

ويوم دخلت الخدر خدر
عندي زرة
فقلت لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

(١) يراجع فتح البارى ج٤ ص٦٩ .

(٢) يراجع طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج١ ص٤١ .

فقلت لها سيرى وأرعى .. ولا تبعدينى من جنك المعلن
زمامه
فمثلك حبلى قد طرقت .. قالهيتها عن ذى تمانم محول
ومرضضوع
إذا ما بكى من خلفها .. بشق وتحتى شقها لم يحول
انصررفت لـه

إن امرأ القيس يقصد باليوم الذى دخل فيه الخدر تلك القصة المشهورة التى وقعت على غدير (دائرة جلجل) يوم عقر للعذارى مطيته، وما حدث فى ذلك اليوم من أحداث تثير العجب منها: أنه كان (الجازر المتبدل)، وأن العذارى تقاسمت حمل رحله حتى بقى هو فحملته حبيبته (عنيزة) التى فعل كل ما فعل من أجلها هي^(١).

فيذكرنا فى قوله: (ويوم دخلت الخدر) بما ترتب على عقر ناقته من دخوله هودج (عنيزة) وأنه نال ما كان يطلبه باجتماعه بها فى خدر واحد، ومعلوم للعقلاء جميعا ما يدور بين رجل كامرئ القيس وفتاة كعنيزة لها ما لها من أوصاف .

فليس بالعجيب إذا أن تقول له (لك الويلات إنك مرجلى) وكان واجبا على كل من علم بصفات امرئ القيس وأحاط خيرا بصفات النساء اللواتى مثل صاحبة امرئ القيس أن يدرك المعنى الذى قصدته تلك الفتاة، يدركه من أول وهلة، ولست أدري كيف ذهب الشراح بعيدا فى فهم معنى قولها السابق، من أنها تدعو له، أو تدعو عليه، وما ذكره الشراح بعيد . فى فهمى . لأسباب كثيرة منها:

(١) تراجع هذه القصة وشرح هذه الأبيات فى: شرح ابن الأنبارى ص ١٣٦، ٣٦: ٤٢، وشرح الزوزنى ص ١٢: ١٤ وشرح الديوان ص ٢١: ٢٢ وشرح المعلقات العشر للدكتور/ عبدالعزیز محمد الفيصل ج ١ ص ٧٦: ٧٨ .

. أن عنيزة كانت تعلم ما تعلم عن امرئ القيس قبل أن تركبه في هودجها على بعيرها، وتعلم أيضا أنه سيفعل ما يشاء وما تشاؤه هي وإلا فلماذا أردفته ووافقت على دخوله الغبيط؟! إنها كانت تستطيع . لو أرادت . أن ترتدف وراء أخرى من صديقاتها لتركها له بعيرا خاصا به .

. ومنها . أيضا . أن امرأ القيس وعنيزة لا يشكلان ثقلا ولا عبئا على بعير في قوة بعير عنيزة، ولا حتى على حمار!!؛ فالارتداف خلف الناقة، والبعير أمر مشهور وليس بالعجيب المستغرب، ويحضرني هنا ما رواه الإمام البخارى (ﷺ) من أن السيدة أسماء بنت سيدنا أبوبكر (رضى الله عنهما) ذكرت أن رسول الله (ﷺ) أتاه حين رآها راجعة تحمل النوى لناضح الزبير وقال لبعيره إخ إخ وذكرت الزبير وغيرته فاستحيت وعرف رسول الله (ﷺ) ذلك فانصرف .

إن رسول الله (ﷺ) كان يريد أن يحملها خلفه على بعيره لولا حياؤها من أن تسير مع الرجال خاصة وأن زوجها من أغير الناس^(١) ولو كان الارتداف متلغا للبعير أو شاقا عليه لما حدث ذلك من رسول الله (ﷺ) .

فالأمر . إذا . فى فهم كلام عنيزة: (لك الويلات إنك مرجلى) أو قولها: (عقرت بعيرى ... فانزل) أمر قريب وواضح لمن فهم طبائع النساء التى أباح بها امرؤ القيس وصاحباته، إن كلامها قريب جدا مما يسمعه الرجال من النساء فى العادة^(٢)،

(١) تراجع رواية الحديث ويوقف على شرحها ودلالاتها فى فتح البارى جـ ٩ صـ ٢٣٠ .

(٢) أقصد النساء الماجنات وليس العفيفات الطاهرات الشريفات .

هى فى هذا ومثله لا تريد أن تدعو عليه بالخراب أو الهلاك وما شابه ذلك إنما الكلام يحمل دلالات نفسية عميقة، تبثها المرأة من خلال هذه العبارات، إن عنيزة قد ادهشها ما رأت من جسارة امرئ القيس ومن عهده وفجره فقالت له ما قالت لتعبر عن فهمها لصفاته، أما قولها: (إنك مرجلى)، وقولها: (فانزل) فدلالته واضحة أيضا كأنى بها تريد أن تقول أو هكذا قصدت بالفعل قصدت: سأتركك وأمشى على رجلى!! سأنزل من على ظهر البعير أو تنزل أنت، إنها تقول ذلك ولا تفعله!! ولكنها أداة من أدوات التدلل ووسيلة من وسائله تلجأ إليها المرأة حين تريد أن تزيد الرجل اشتعالا!!

إن عنيزة لم يكن يهمها . فى ذلك الحال . بغيرها ولا ظهره ولا رجليه!، بعد أن عاشت مع امرئ القيس ما توقعت وما زاد على توقعها، وقد كان الفاجر قادرا على فهم ما أردته، خبيرا بما قصدته فى قوله:

فقلت لها سيرى وأرخى . . . ولا تبعدينى من جناك المعلن
زممامه

يقول لها: استمرى فى السير، واتركى بعيرك فى شأنه سائرا، لا تنشغلى عنى بغيرى (لا تبعدينى من جناك المعلن) يرجوها ألا تتباعد عنه بتدللها فتبعده عن نيل ما أحب، وهو هنا يبرزها فى صورة جميلة حقا، حيث شبهها بالشجرة المثمرة ذات الجنى وهو: الثمر والرائحة الطيبة، على سبيل الاستعارة المكنية فى لفظ المشبه به المحذوف والذى دل عليه بذكر بعض لوازمه، وهذه الصورة تعكس لنا إحساسه بها وتقديره لما فيها من أنوثة وجمال .

ويجوز أن نقدر استعارة تصريحية فى لفظ (جناك) حيث استعاره للقبل ورشقات الرضاب والرائحة الذكية والحديث الساحر، والصورة على كل حال تبرز إعجابه بها وتقديره لأنوثتها وجمالها فهى جميلة فى:

الشكل واللون والرائحة والطعم، فقد شاهد وذاق وشم ولمس وهذه هي جرائته وطبعه مع النساء الذي خالف فيه كل الشعراء .

وقوله: (جناك المعلن) إذا كان المعلن بكسر اللام المشددة . اسم فاعل . فالمعنى فيه: الذي ألهاني وشغلتني عن كل شيء سواك وإذا كان بالفتح . اسم مفعول . فالمعنى فيه: الذي كررت التعامل معه فهو لا يمل ما يفعل وهذا كله كناية عن حسنها وقبول نفسه لها وأنها لا تمل .

وقد وجدت في الديوان بعد هذا البيت بيتين لم يردا عند ابن الأنباري ولا عند الزوزني وهما قوله^(١):

دعي البكر لا ترثي له من ردافنا . وهاتي أديقينا جناة القرنفل
بثغر كمثل الأقحوان منور . . . نقى الثنايا أشنب غير أثعل

يقول لها: اتركي البكر: وهو الفتى من الإبل، لا تشفقي عليه من ركوبنا، ولا تنشغلي به عن أمرنا، ويطلب منها أن تذيبه فمها؛ ليرتشف رضابه ويستروح رائحته الذكية التي تشبه رائحة القرنفل والصورة البيانية واضحة في (جناة القرنفل) فهي مستعارة لجمال الرضاب وطيب رائحة الفم .

وأخذ يفصل في جمال فمها فقال: (بثغر كمثل الأقحوان منور) فهو يشبه جمال أسنانها ولمعانها بهذا الزهر المسمى الأقحوان في لمعانه وإشراقه ونظافته ثم قال: (نقى الثنايا أشنب غير أثعل) فأسنانها منظومة بجمال وهي لامعة مشرقة نظيفة ولها ريق عذب لذيد كما أن أسنانها لا ثعل فيها : أي ليس فيها أسنان زائدة خلف الأسنان وليس

(١) يراجع البيتان وشرحهما في ديوان امرئ القيس ص ٢١ بشرح د/محمد الإسكندراني ود/نهاد رزوق ط دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ١٤٢٦ هـ .

فيها سن مركب على آخر أو نابت تحته، وكل هذا كناية عن جمال
الفم الذى صورته بتلك الصور .

ثم بدأ فى الفجور والعصيان والإعلان عن حاله مع النسوان
فقال:

فمئتك حبلى قد طرقت قالهيتها عن ذى تمائم محول
ومرضــع ..
إذا ما بكى من خلفها بشق وتحتى شقها لم يحول
أنصرفت لــه ..

وأريد أن أتبه . قبل ذكر الصورة فى البيتين . على أن الطرق . هنا . ليس معناه الإتيان ليلا كما قال بعض الشراح، وإنما معناه: المضاجعة والوطء، فهو يقصد بـ(طرقت) جامعاً، وهذا المعنى ثابت ومشهور فى لغة الناس فى جزيرة العرب وبلاد الشام إلى اليوم، وقد نصت عليه معاجم اللغة، قال ابن منظور: (وطرق الفحل الناقة يطرقها طرقةً وطروقاً أى: قعا عليها وضربها ... يقال: ناقة طروقة الفحل التى بلغت أن يضربها الفحل، وكذلك المرأة ... قال ابن سيده: وأرى ذلك مستعاراً للنساء ، كما استعار أبوالمسالك الطرق فى الإنسان حين قال له النجاشى: ما تسقينى؟ قال: شراب كالورس، يطيب النفس ويكثر الطرق ... وقد يجوز أن يكون الطرق وضعاً فى الإنسان فلا يكون مستعاراً) (١) .

فدلالة الطرق المعجمية تعنى: الوطء والنكاح، سواء أكان ذلك مستعاراً فى الإنسان؛ لأنه فى الأصل للإبل، أم كان ذلك أصلاً ووضعاً فى اللغة للإنسان ولا استعارة فيه، فامروء القيس قصد بطرقت: نكحت وجامعت وليس المعنى . زرت ليلا . كما ذكر الشراح .

وهناك شىء آخر يجب التنبيه إليه فى قوله: (فمئتلك حبلى قد طرقت ومرضع) وهو أن المثلية هنا لا يقصد بها مثلية الحبل والإرضاع؛ لأن عذبة لم تكن فيها هاتان الصفتان ولا واحدة منهما بل كانت بكراً، وهو قد صرح بذلك فى قوله: (ويوم عقرت للعدارى مطيتى) بل المثلية معناها . هنا . التدلل والامتناع والحسن والجمال ... فهو يقصد فمئتلك فى جمالك ودلالك وتمنعك قد طرقت حتى الحوامل والمرضعات، وقد خص هذين الوصفين؛ لأن المرضعات والحوامل أزهد

(١) ينظر اللسان مادة: طرق، وتراجع المادة فى: أساس البلاغة فقد عدها الزمخشري مجازاً فى النكاح فى الإنسان، وراجع أيضاً القاموس المحيط .

النساء فى الرجال وأقلهن شغفا بهم وحرصا عليهم بخلاف الأبخار،
فهن أشد محبة للرجال .

وإنما أراد بذلك أن يلهب عاطفة (عنيزة) ويثير غيرتها من خلال
ما يحكى لها من مغامراته العاطفية والجسدية مع النساء اللواتى
شغلن بجماله ومزاياه .

ولا يبعد . عندى . أنه قصد امرأة واحدة كان فيها صفتا الحمل
والإرضاع، بدليل قوله: (ذى تمانم مغيل) فالمغيل: هو الذى ترضعه
أمه وهى حامل، وبدليل الجر فى (مرضع) ولو كانت امرأة أخرى
لنصبها فقال: مرضعا على تقدير: طرقتها وطرقت مرضعا، ولعل هذا
يتناسب مع أفراد الضمير بعد ذلك، ولو كان هذا قصده لكان أبلغ فى
مدح نفسه بشغف النساء به فى الأحوال التى يزهدن الرجال فيها .

ثم ذكر بيتا أجمع النقاد على أنه غاية فى الفحش ولعنوا امرأ
القيس من أجله وهو قوله:
إذا ما بكى من خلفها بشق وتحتى شقها لم يحول
أنصرفت لــــه .:

قال القاضى أبوبكر بن الطيب الباقلانى عن هذا البيت: (غاية
فى الفحش ونهاية فى السخف، وأى فائدة لذكره لعشيقته كيف كان
يركب هذه القبائح، ويذهب هذه المذاهب، ويرد هذه الموارد إن هذا
ليبغضه كل من سمع كلامه، ويوجب له المقت وهو لو صدق لكان
قبيحا، فكيف ويجوز أن يكون كاذبا) (١) .

والقاضى الباقلانى . رحمه الله . كان رجلا ورعا عفيفا حيا
شريفا فحكم بما عنده، وقوله: (ويجوز أن يكون كاذبا) أراد به استبعاد
ذلك العهر . والحقيقة أن امرأ القيس لم يكن كاذبا ولا عجب فيما صرح
به ؛ فهو جاهلى عرييد، وقال ذلك ليله به عاطفة عشيقته كى تتجرأ

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٢ .

على الزنا، كما تجرأت نساء غيرها، وذكر لها أن هذا طبع فيه، وعادة من عاداته فلا داعي للتمنع بعد أن أذاقته جناة القرنفل!

وقد ذكر الشراح أنها في هذا الوقت . أقصد المرضع . بكى وليدها فبقيت بهواها وعاطفتها مع امرئ القيس، وانحرفت بنصف جسدها الأعلى فقط لترضع وليدها، وبقي نصفها الأسفل ثابتا تحته لم يحول، وهذا يدل على أنهما بلغا في الثبات على العهارة حدا بعيدا لدرجة أن أحاسيسهما كلها كانت منصبة على لذذة الفاحشة فقط، ولو كانا بشرين عاديين سويين لأفسد عليهما بكاء الطفل حالهما، وأرى أنه كان قاصدا ما يقول مستوعبا له ويعنيه جيدا، وأنه كان قد اختار نساء مثله في هذه الصفات القبيحة .

(ويرى أبو جعفر النحاس في معنى هذا البيت أنها فيما كانت تحت الشاعر وهو فوقها يضاجعها ويقبلها، بكى طفلها من خلفها، فمالت إليه بطرفها ونظراتها، وبقيت على ما هي عليه مع الشاعر، لأن هواها معه، وليس المقصود بالقول: (انحرفت له بشق) أي: انصرفت بجزء من جسدها ترضع طفلها فيما الشق أو الجزء الآخر تحت الشاعر ؛ لأن فعل ذلك صعب) (١) .

ولست أدري كيف قال أبو جعفر بصعوبة ذلك مع امرأة قد اختارها امرؤ القيس للفاحشة وهي قد اختارته لها، فامرأة هذا حالها قادرة على أن ترضع طفلها على كل أحوالها معه ، والطفل الرضيع الباكي لا تكفيه عن لبن الأم نظرات العيون، إنها تريد أن ترضعه لتخدمه، لعن الله أم ذلك الوليد المحول، ولعن من طرقها صادقا فيما فعل أو كاذبا فيما قال .

واستمر في ذكر أخباره مع النساء فقال:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها .: تمتعت من لهو بها غير معجل

(١) شرح ديوان امرئ القيس ص ٢٢ .

أى: رب امرأة مثل بيضة الخدر فى الصفاء والرقة والبياض والصيانة قد تمتعت بها، والنساء يشبهن بالبيض من ثلاثة وجوه، أحدها: الصحة والسلامة من الطمس، والثانى الصيانة والستر كما يصون الطائر بيته، والثالث: صفاء اللون ونقائه، وهو يريد بذلك أن يثير غريزتها ويشعل قلبها، كما يريد أن تتجراً على هذه المغامرات كما تجراً هو وكما تجرات نساء كثيرات .

ويمكن لنا أن نفسر كثرة حديث امرئ القيس عن مغامراته مع النساء بأنه أراد أن يهيب الفتاة التى يخاطبها لذلك الأمر، ويبين أنها أنها ليست الوحيدة التى ستقدم على ذلك، فهناك من فعلن ولم يتحرجن! وهذا يدل على خبرته التامة بأسرار النساء وكيف يدخل عليهن من أبواب لا تقفل فى وجهه، فهو يدرب عشيقاته على الفجور ويعبد لهن الطريق إليه .

وقوله: (وببيضة خدر) يدل على أنه يذهب إلى نساء لهن شأن عظيم، وقد أكد هذا بقوله: (لا يرام خباؤها) فهي لعزتها لا يصل أحد لخبائها، والخباء: البيت الصغير يكون من عمودين أو ثلاثة، وهذا كناية عن نسبة حيث ذكر الخباء ونبه على عدم الوصول إليه والمراد من بداخله، وفي هذا تأكيد للمعنى بدليله كما ذكر البلاغيون .

ثم ذكر أنه أخذ منها اللذات كلها (غير معجل) فقد مكث عندها وقضى منها ما شاء غير مذعور ولا خائف ولا قلق، وفي هذا دليل على رضاها التام وأنها لم تكره على ما فعل ، وببيضة الخدر توحى بأنها كانت بكرًا^(١) .

وهذا الكلام يبين أنه كان يختار من النساء ما يشاء ولم يكره واحده على فعل ما يريد، ولعل سبب ذلك شهرته وكونه ملكا وابن ملك، وهذا أمر تحبه النساء، ولعل هذا الفهم لشخصية امرئ القيس يفسر لنا الخفاء في بعض الدلالات التي قد لا تبدو واضحة من التركيب مثل (لك الويلات إنك مرجلى) و(عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل) فهي لا تريد أن تتركه وتنزل أو ينزل هو ولكنها . كما ذكرت سابقا . تتدلل عليه وتغازله .

وأخذ يفصل في مغامراته معها فقال:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها .: لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقد جاءها وقد سلخت ثيابها وألقتها إلا ثوبها الذى يلى جسدها،
وقد يرد سؤال: أكانت تفعل ذلك مستعدة للنوم غافلة عن امرئ القيس
ثم أتاها فجأة؟، أم أنها فعلت ذلك منتظرة له مواعدة معه ليأتيها فى

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص٤٨ وشرح الزوزنى ص١٦، ١٧
وشرح ديوان امرئ القيس ص٢٤٠ .

مكانها؟ والجواب عن مثل هذا فى قول الزوزنى: (وقد وقفت عند الستر مترقبة ومنتظرة لى وإنما خلعت الثياب لترى أهلها أنها تريد النوم) (١) .

وهذا فهم دقيق من الزوزنى فقد أدرك من قوله: (لدى الستر) أنها لم تكن نائمة ولا تريد النوم، وإنما كانت تترقبه، ويبدو من القصة أنها كانت فتاة فى بيت أهلها وليست بذات زوج، وقد خرج بها خارج الحى كما فى قوله:

فقمتم بها أمشى تجر وراءنا .: على إثرنا أديال مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى .: بنا بطن خبت ذى قفاف عقتل
وانتحنى

فقد خرجا خارج مساكن القبيلة، وقد كانت حذرة متيقظة فكانت تجر ذيل ثيابها على الأرض لتخفى الأثر، ظلا ساترين حتى وصلا (بطن خبت ذى قفاف عقتل)، والقفاف جمع قف وهو: ما غلظ من الأرض وارتفع ولم يبلغ أن يكون جبلا، والعقتل: المنعقد الداخلى بعضه فوق بعض، وفى رواية: (ذى حقاف) والحقف: رمل مشرف معوج والجمع: أحقاف وحقاف، وهذا يدل على خبرته فى اختيار الأماكن التى تناسبه فى تلك الحالات، ومن الدقة الأسلوبية أن يقول: (انتحنى بنا بطن خبت) فكأن المكان هو الذى أغراهما ودفعهما إليه دفعا، وهذا يدل على أنه كان يأتى المكان باختيار ويمارس حاجته باطمئنان (٢) .

ثم حكى عما دار بينهما فى هذا المكان فقال:

مددت بغصنى دومة فتمايلت .: على هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة .: ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدى عن أسيل وتتنقى .: بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الريم ليس .: إذا هى نصته ولا بمعطل

(١) شرح الزوزنى ص ١٨ ويراجع شرح ابن الأنبارى ص ٥١، ٥٢
(٢) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٥٤ : ٥٦ والزوزنى ص ١٩ وشرح الديوان ص ٢٦ .

بفـاحش

إنه هو الذى بدأ معها قصة الحرام (مددت بغصنى دومة) إنه يشبهها بشجرة الدوم، ويشبه ذؤابتها بغصنى تلك الشجرة، ويشبه ما تعطيه من قبلات بجنى الثمر، وفى رواية (هصرت بفودى رأسها) فقد جذب جانبي رأسها ولم تستطع حينئذ أن تتمالك بل (تمايلت على هضيم الكشح ربا المخلخل) إنه يصف أنوثتها الطاغية بعد أن احتضنها إليه، فأحس بكشحا الهضيم، والكشح ما بين منقطع الأضلاع إلى الورك، فهي ضامرة البطن ليست ممثلة وهى (ريا المخلخل) أى: ممثلة الساق حيث يكون الخلال، كما أنها (مهففة ببيضاء غير مفاضة) فهي خفيفة اللحم بيضاء الجسم، ليست مترهلة، لكنها لطيفة رشيقة وهذا يوحى بصغر سنها وقتوتها فلم تصل إلى العمر الذى تعاب فيه أجساد النساء .

ثم قال: (ترائبها مصقولة كالسجنجل) والترائب جمع: التريبة وهى: موضع القلادة من الصدر، والسجنجل: المرأة، وهى لغة رومية عربتها العرب، فهو يشبه جمال وبريق صدرها بالمرأة الصافية اللامعة، ثم بدأ يصف أفعالها وأحوالها معه فقال: (تصد وتبدي عن أسيل) وهذا تعبير له دلالات عميقة تنبه لها شارح الديوان فقال: (امرأة فتية ناضجة تعى ما تفعل وليست بفتاة صغيرة جاهلة، أو بعجوز فانية وهى تميل بوجهها وتعرض عنه خفرا واستحياء وغنجا ودلالا) (١) .

أما قوله: (وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل) فأرجح ما قيل فيه أنها بدأت تتجاوب معه بكل جسدها حتى العيون، وليس معنى: (تتقى) أنها خائفة تترقب الناس؛ لأن السياق فيه أنها جرت ذيل مرطها على الأثر، وأنها دخلا فى مكان خفى وآمن، بل نحن نستبعد أنها تتقى الناس وتترقبهم؛ لأن انشغالها بالرقباء يجعلها بعيدة عن

(١) الديوان ص ٢٨ .

امرئ القيس، وهو لم يرد ذلك وإلا ذم نفسه بأنها مشغولة بغيره عنه، إنما هو يقصد بقوله: (تتقى بناظرة) ذبلت ولانت. والمرأة في حالتها قد تتقى عشيقها بالحركة أو الصوت أو النظرات، ويؤيد هذا الفهم قوله: (من وحش وجرة مطفل) فهو يشبه نظراتها إليه في حنانها ورقتها وسرورها وشوقها بنظرة الغزال ذات الطفل إلى طفلها، واختار (وجرة) بالذات لأنه مكان معهود بكثرة الغزلان، وفيه ترتع، وهو - كما قال صاحب القاموس - موضع بين مكة والبصرة^(١).

ثم وصف عنقها فقال : (وجيد كجيد الريم) فعنقها يشبه عنق الطي الأبيض في جماله ورشاقته وطوله، ولكنه احترس في وصف العنق فقال (ولا بمعطل) فإذا كان عنق الطي خاليا من الحلى والزينة فعنقها ليس كذلك، إنه ممتلئ بالزينة الدالة على الثراء والنعيم، وهذا يدل على أنه كان يختار من النساء من لها حظ وافر من الجمال والثراء والشهرة ولم يكن يلتقط أى ساقطة في طريق الشيطان، ومن الخصائص التي امتاز بها امرؤ القيس في الحديث عن مغامراته مع النساء أنه طويل النفس وأن الطريق الذي سلكه كان قد اتسع له وضاق على كثير من الشعراء، وهذه فروق دقيقة يجب أن تراعى عند دراسة أساليب الشعراء وخصائص أشعارهم .

ونترك امرأ القيس وننتقل إلى طرفة بن العبد الذي قال معلقته وهو شاب مقبل على الدنيا وخضرتها، والنساء وزينتها لننظر في حاله، فنراه يقول:

ندامى بيض كالنجوم وقينة : تروح إلينا بين برد ومجسد
 رحيب قطاب الجيب منها : بجس الندامى بضة المتجرد
 رفيقة

(١) يراجع شرح ابن الأنباري ص ٥٦ : ٦١، وشرح الزوزنى ص ٢٠ : ٢٢ وشرح ديوان امرئ القيس ص ٢٧، ٢٨ ويراجع القاموس المحيط مادة: وجر .

إن طرفة يصف أصحابه الذين يجالسونه على الشراب بأنهم (بيض كالنجوم) وبياض الوجه كناية عن: أنهم أحرار ولدوا من أمهات حرائر، ولم يرثوا اللون الأسود، ويجوز أن يكون البياض . هنا . كناية عن الشهرة والشرف وعلو المقام فى الأندية والمجامع فلم يلحقهم ما يعيرون به فيظهر أثره فى وجوههم أو يكون البياض إشارة إلى نقائهم من العيوب؛ لأن فى البياض نقاء من الدرن والوسخ، فالبياض فى كلام العرب لا يخرج عن تلك الدلالات، وقد شبههم بالنجوم فى الشهرة والرفعة والعلو .

والقينة: الجارية المغنية التى تتحرك بينهم فى هذه الثياب المصبوغة بالزعفران^(١) .

ثم وصف ثياب هذه القينة فقال: (رحيب قطاب الجيب منها) يعنى: الثياب الذى تلبسه يختلف عن غيره فهو: واسع من عند مخرج الرأس، ومعنى هذا أنه يكشف عن أشياء فى صدرها وربما عن أشياء أخرى من جسدها، وقد لبست هذا الثياب لتثير غرائز الندامى على عادة النساء فى مثل هذه الأماكن، فرحابة القطاب كناية عن ظهور المفاتن فى هذه المواضع من الجسد ، وقوله: (رفيقة بجس الندامى) يدل على أنها مومس ماجنة أتت هذا المكان من أجل ما يريد الندامى فهم يعبثون فى جسدها ومفاتها بأيديهم، وقوله: (بضة المتجرد) معناه: أنها رقيقة ناعمة إذا تجردت من ثيابها، والكلام لا يدل على أنها تجردت من ثيابها ولكن يدل على أنها كشفت عن أماكن معينة أوحى له بما فهمه، وهذا الكلام من طرفة يدل على عدم خبرته بالنساء وعدم جرأته عليهن، فقد انشغل بأشياء ثانوية على عادة الشباب فى سنه .

(١) يراجع شرح الزوزنى ص ٥٨ .

ثم ذكر صورة أخرى للمرأة وحاله معها فقال:

وتقصير يوم الدجن والدجن . . . ببهنكة تحت الخباء المعمد
معجب
كان البرين والدماليج علقت . . . على عشر أو خروج لم يخضد
فهو يقصر (يوم الدجن) وهو: اليوم الذي يملأ فيه الغيم آفاق
السماء، (ببهنكة) وهى: المرأة الحسنة التامة الخلق الناعمة يقضى
معها هذا اليوم تحت (الخباء المعمد) وهو: بيت من الشعر ممدود على
حبال كانوا ينصبونها على عمد، فهو حين لا يستطيع الخروج فى هذا
اليوم بسبب كثرة أمطاره وشدة رياحه يلهو مع امرأة تحت الخباء،
ليقضى هذا اليوم الذى حالت الظروف بينه وبين الخروج فيه، ثم
وصفها بقوله:

كان البرين والدماليج علقت . . . على عشر أو خروج لم يخضد
(البرين) هى: الخلاخيل التى تكون فى الساق (والدماليج) هى:
المعاضد، و(العشر والخروج) نوعان من الشجر، (لم يخضد) لم يشذب
ولم يخدش فهو باق على نضارته وطبيعته فهو يشبه الساعدين
والساقين بذلك النوع من الشجر فى امتلائه وضخامته وليونته^(١).

وواضح من كلام طرفة عدم خبرته بالنساء وجهله بكثير من
أوصافهن التى أحاط بها امرؤ القيس، ولعل سبب ذلك هو صغر سن
طرفة فلم يقع فى تجارب ومغامرات توصله للخبرة فى هذا الشأن، وكان
يمكن لنا ألا نعد طرفة من الشعراء الذين أفحشوا فى الأوصاف لولا
قوله: (رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى) فهذا كلام واضح
الدلالة على أنه نهج هذا السبيل؛ لأن الإنسان يوصف بأنه سار فى
الطريق بمجرد انطلاقه فيه، حتى لو لم يكن محيطا به ، أو مدركا لما
على جوانبه، فنيته وهواه جمعته من أولئك الشعراء .

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ١٩٦ : ١٩٨ وشرح الزوزنى
ص ٦٢، ٦١ .

وإذا انتقلنا إلى عنتره نجده يتحدث عن النساء بأدب وانضباط
بيد أن هناك بعض أبيات ذكرها في المعلقة تحتاج إلى دراسة وتأمل
منها قوله:

دار لآنسة غضيض طرفها .: طوع العناق لذيدة المتبسم^(١)

إنه يصف عبلة بأنها آنسة أي: امرأة فتية طيبة النفس، تؤنس
حبيبها وهي فاترة الطرف في نظرتها رقة، وحنان، ثم قال: (طوع
العناق) أي: هي مطيعة سلسة القيادة لمن أراد أن ينال منها، وقوله:
(لذيدة المتبسم) أي: لذيدة طعم الفم، حسنة الريق، وهذه أوصاف لا
يملكها إلا من جربها ولا يتجراً عليها إلا من فعلها، إلا أن يكون عنتره
قد تخيل ذلك ولم يفعله، وهذا ظني فيه .

ثم قال:

إذ تستبيك بذى غروب .: عذب مقبله لذيد المطعم
واضح

إنها إذا استقبلتك وضحت إليك: (تستبيك) أي: تذهب بعقلك
(بذى غروب) أي: بثغر ذى غروب، والغروب جمع غرب وهو: حد
الأسنان وهو الأشهر والتحزيز الذى يكون فى أسنان الفتاة الصغيرة،
(واضح) يعنى: أبيض لامع، (عذب مقبله) يعنى بارد ، بين اللذادة
والمقبل: موضع التقبيل ثم أكد المعنى بقوله: (لذيد المطعم) أى طعمه
فيه لذادة عند التقبيل، إن عنتره . هنا . يتغزل غزلاً صريحاً بتذوق
وتعمق، إنه قد وضع عينيه وشفثيه ولسانه على أشياء مؤثرة ، وقد
ذكر أن عقله صار أسيراً لها طائعا لهواها، وإذا قلنا: إن غزله هنا

(١) هذا البيت موجود فى ديوان عنتره ولم يذكره ابن الأنبارى. يراجع
ديوان عنتره ص ١٣٩ ط دار الفكر لبنان طبعة أولى ١٩٩٦م
ويراجع المعلقة العشر د/ عبدالعزيز محمد الفيصل ج١ ص ٢٩٤ ،
٢٩٥ .

عفيف فقد ابتعدنا كثيرا عن الصواب، وإذا قلنا إنه يتخيل ذلك فلسنا على صواب أيضا؛ لأن كلامه واضح الدلالة في أنه اقترب قريبا شديدا من الفم حتى رأى التحزيز الكائن في الأسنان وليس عندنا مانع يمنعنا أن نقول: إنه لمس الفم وذاقه بالفعل^(١).

وسبق أن ذكرنا جانباً من أوصافه لعلة في أثناء حديثنا عن أوصافهم للخمر وعلى كل حال يبقى عنتره. في فهمنا لمعلقته وحكمنا على شخصيته. رجلاً منضبطاً متحفظاً، أمينا على محبوبته وأسرارها غير مذيع لها، حتى ما ورد عنده من أوصاف يمكن حملها على الحقيقة لا تخرجه. أيضا. عن الأدب والحفاظ خاصة وأنه في مجتمع جاهلي.

وننتقل إلى عمرو بن كلثوم لنرى جراته وفحشه بيد أنه لم يصل إلى فحش امرئ القيس وإن كان يقترب منه أحيانا، فهو يقول:

تريك إذا دخلت على خلاء .: وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعى عيطل أدماء بكر .: تربعت الأجارع والمتونا
وثديا مثل حق العاج رخصا .: حصانا من أكف اللامسينا
ومتنى لدنة طالت ولانت .: روادفها تنوء بما يلينا
وماكمة يضيق الباب عنها .: وكشحا قد جنت به جنونا^(٢)

(١) يراجع شرح ابن الأنباري ص ٣٠٧، ٣٠٨، وشرح الزوزني ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) البيت الأخير ذكره الزوزني ولم يذكره ابن الأنباري، وهناك رواية: (أدماء بكر) بفتح الباء في بكر ورواية الكسر أعلى وأشهر يراجع شرح الأبيات في: شرح معلقة عمرو بن كلثوم لأببالحسن بن كسان ص ٥٠ : ٥٣ وشرح ابن الأنباري ص ٣٧٧ : ٣٨٢ وشرح الزوزني ص ١٢٠ ، ١٢١ والمعلقات العشر د/عبدالعزيز الفيصل ج ١ ص ٤٩٥ : ٤٩٧ .

إنه يصف تلك المرأة بأوصاف حسية جريئة ، وقوله: (دخلت على خلء) معناه: إذا دخلت عليها في خلوة وليس بحضرتها أحد من الناس

خاصة الرقباء والحساد ، فسوف تترك أشياء من أنوثتها الطاغية من ذلك: (ذراعى عيطل أدماء بكر) فهو يشبه ذراعيها بذراعى الناقة الطويلة العنق البيضاء البكر. والبكر: الفتية من الإبل، والعذراء ، ولعل الأشهر . هنا . أنه أراد العذراء، ويؤيد ذلك ما رواه أبو عبيدة وتبعه الزوزنى:

ذراعى عيطل أدماء بكر .: هجان اللون لم تقرأ جنينا
فقوله: (لم تقرأ جنينا) معناه: لم تضم في رحمها ولدا، ثم أخذ يصف نضارتها وحسنها فقال: (تربعت الأجارع والمتونا) أى: رعت ما أنبته الربيع فى هذه الأماكن، والأجارع: الرمل المستطيل المرتفع قليلا، والمتون: ما غلظ من الأرض فهي تنقلت أيام الربيع ترعى خيرات الأرض بين الروابى وأطراف الجبال، واختيار زمن الربيع فيه إشارة إلى النضارة والإشراق لأنه الزمن الذى ترتع فيه الأنعام والأنام، وفيه تخرج الأرض خيراتنا ويطيب مناخها .

ثم أخذ يصف الأماكن المحظورة فقال:

وثديا مثل حق العاج رخصا .: حصانا من أكف اللامسينا
فهو يشبه ثديها فى بياضه ونتوئه واستدارته بحق العاج،
والحق: وعاء ذو غطاء مستدير يصنع من العاج وغيره ، (والرخص):
اللين اللطيف، والحصان: المصون الممتعة من أكف اللامسين
العابثين بأمثالها، وقد كان دقيقا فى اختيار هذه الأوصاف، فحين
وصف الثدى بالحق، راعى فيه شيئا ليس فى الحق، فإذا كان الحق

يابسا صلبا فهذا لين ناعم، وهذه أوصاف تدل على أنها بكر كما قلنا سابقا .

ثم قال:

ومتى لدنة طالت ولانت .: روادفها تنوء بما يلينا
والمتان هما: جانب الفقار من الظهر، يصفهما بقوله: (لدنة
طالت ولانت) أىقامة لدنة وهى: الناعمة، فهو يصف صلبها بالطول
واللين ثم وصف روادفها وهى: الأعجاز وما يلي العجيزة ويرتدفا من
أسفل، فروادفها ثقيلة ممثلة وهى مع ذلك تنهض وتقوم إلى حاجتها
بكل قوة ونشاط .

وهذه صفات كانت محببة عند العرب فى ذلك الزمان؛ لأنها دليل
على الصحة والعافية والنعيم، ولم يكن امتلاء النساء عيبا ومرضا، بل
كان قوة وسلامة، وكان العربى يحب المرأة القوية التى تعينه على
صعوبات الحياة فى الحل والترحال والحروب، والتى تنجب له أولادا
أقوياء أصحاء يحملون اسمه ويرفعون ذكره، وهى لم تكن ممثلة على
الحد الذى ينفر الرجال ولو كان الأمر كذلك لما مدحها وهو زعيم
مشهور فى قبيلته، وقد يؤيد ما أقصده قوله فى الوصف السابق:
(تربعت الأجارع والمтона) فهذا رمز للثراء والنعيم .

وقوله:

وماكمة يضيق الباب عنها .: وكشحا قد جننت به جنونا

تأكيد لحسنها الذي تكامل في كل جسدها، والمأكمة: هي لحمة على رأس الورك بين العجز والمتن، فهو يصف ما فوق العجيزة، فليس الامتلاء في الأرداف فقط بل يعلو حتى المآكم ثم وصف الكشح، والمقصود به: البطن وموضع السرة فجمال هذا الموضع أحدث فيه إثارة أوصلته لحد الجنون!!

وقوله: (يضيق الباب عنها)، كناية عن السمن والامتلاء في هذه المواضع من الجسد ، وأنها كانت فارهة الطول .
وكنا قد تحدثنا من قبل عن قوله^(١):

إذا ما رحن يمشين الهوينى .: كما اضطربت متون الشاربينا
فهن يمشين في تودة وأمان لا يصيبهن فزع من الأعداء، وهن في هذه المشية يظهرن مفاتنهن الطاغية، فإذا مسن في مشيتهن تحركت متونهن بدفع أفضاهن بعضها ببعض وهي حركة غير مفتعلة بل طبيعية نتيجة امتلاء الأرداف^(٢).

وكل صوره من بينته التي عاشها وكذلك كانت صور غيره من الشعراء وقد كان فاجرا جريئا بيد أنه لم يصل إلى فجور امرئ القيس .

(١) ذكرنا هذا البيت في أثناء حديثنا عن الصورة في الخمر فيرجع إليه في موضعه .

(٢) يراجع معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبا الحسن بن كيسان ص ١١

المبحث الثالث عادة الظلم

ذكر أصحاب المعلقات جانبا مهما من الحياة الاجتماعية التي عاشوها وهو ما يتعلق بالتعامل بين القبائل العربية ، أو بين أفراد القبيلة الواحدة، وما وقع من ظلم وبطش في تلك الحياة .

فهذا طرفة يبيث شكواه من ظلم أقاربه الذي وقع عليه بدون جريرة ارتكبها فيقول:

فمالي أراني وابن عمي مالكا .: متى أدن منه ينأ عني ويبعد
يلوم وما أدري علام يلومني .: كما لامني في الحى قرط بن أعبد
وأياسني من كل خير طلبته .: كأننا وضعناه إلى رمس ملحد
على غير ذنب قلته غير أنني .: نشدت فلم أغفل حمولة معبد

إن طرفة متعجب مندهش من قطيعة ابن عمه له، فقد هجره وعاداه وكلما حاول طرفة أن يقترب من ابن عمه (مالكا) ازداد ابن عمه بعدا وقطيعة، ولوما، كل هذا يحدث بدون جريرة ارتكبها طرفة، ولم يقتصر الأمر على ابن عمه، بل تعداه إلى رجل آخر في القبيلة إنه (قرط بن أعبد) ويروى ابن معبد، الذي أسرف كذلك في لوم طرفة وعداوته .

وقد وصلت الأمور بطرفه إلى حد اليأس والقنوط من أى خير يرتجيه من ابن عمه، كأن ابن عمه قد مات ودفن في القبر، أو كأن مطالب وحاجات طرفه قد وضعت في قبر رجل ميت! وكلام طرفه . هنا . يحمل دلالتين:

الأولى: أن ابن عمه كان مشهورا في قبيلته، وأن أفراد القبيلة كانوا في حاجة إليه .

الدلالة الثائية: أن طرفة كان شابا صاحب طموحات كبيرة على عادة الشباب الناهضين بأعباء وهموم أقاربهم، فحين ينصرف عنه ابن عمه تضيع آماله ويكون الأمر عسيرا عليه. ويذكر طرفة أن هذه العداوة لا ذنب له فيها فيقول:

على غير ذنب قلته غير أننى .: نشدت فلم أغفل حمولة معبد
فلم يصدر من طرفة ذنب إلا أنه طلب إبل أخيه (معبد) ولم يتركها تضيع، فنقم ابن عمه عليه من أجل ذلك، والكلام كما ترى فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم^(١).

وهذه الأبيات دليل واضح على التفرق والكراهية والتمزق الذى وقع فى قبيلته واستجلب العداوة، فلم يسد فيها الحب والاحترام المتبادل وتقدير الأقارب وتلبية مطالبهم، من أجل ذلك رأيناه يوصى ابنة أخيه (معبد) بأن تبكى وتشق عليه الجيب، كأنه كان يشعر بالحرمان!

واستمر طرفة يعرض همومه وآلامه وما وقع عليه من ظلم أقاربه مع أنه شاب طموح غيور على قبيلته يدافع عنها بكل قوته، ثم هو يتمنى لو كان ابن عمه على غير هذه الصفات حتى يفرج كربته ويسمع شكواه ويحقق له آماله، ولا يضيق عليه أموره كأنه يخنقه، ثم قال بيتا غاية فى التألم والتوجع والتحسر، ما زال الناس يتمثلون به منذ قاله إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله من أزمان، قال:

وظلم ذوى القربى أشد .: على المرء من وقع الحسام المهند
مضاضة

وأقول: لو عاش طرفة أعمارا على عمره ثم مات ثم حيي وظل يبكى بدموعه لما أثر فى الناس بمثل هذا البيت؛ لأن الإنسان يحتاج

(١) يراجع الشرح عند ابن الأنبارى ص ٢٠٢: ٢٠٤ والزوزنى ص ٦٣

إلى قريبه ليحميه ويدفع عنه الأذى، فإذا كان القريب هو مصدر الشر والأذى والإذلال فمن أين يأتي الناصر؟ وقد تصرف طرفة في التشبيه وأبدع فيه فهو لم يشبه الظلم الواقع على النفس من القريب بضرب السيف حين يقطع ويؤلم، بل جعله أشد أثراً من ذلك، وهي مبالغة مقبولة؛ لأن الظلم يبقى ألماً في النفس لا يزول، وإذا كان السيف يترك جراحاً موجعة فقد تبرأ تلك الجراح مع الأيام، ولكن حزازات النفوس والشعور بالظلم يبقى مع الأيام^(١).

وقديما قال زفر بن الحارث الكلابي:

وقد ينبت المرعى على دمن وتبقى حزازات النفوس كما هيا^(٢)
الثرى

وقال عمرو بن كلثوم:

وإن الضغن بعد الضغن يبدو عليك ويخرج الداء الدفينا

(١) يراجع البيت وشرحه عند ابن الأنباري ص ٢٠٩ ، والزوزني ص ٦٥ .

(٢) ينظر البيت في اللسان مادة : حرز .

فالحقد القديم والعداوات المكتومة فى القلوب تفسو آثارها وتبعث على الانتقام^(١) .

ويحضرنى هنا قول رسول الله (ﷺ) : (أو مخرجى هم)؟ إنه (ﷺ) ينكر ويستبعد ويتفجع أن يكون قومه وعشيرته هم أعداءه الظالمين المعادين المخرجين له من بلده^(٢) !!

وحين قالت السيدة عائشة (رضى الله عنها) لرسول الله (ﷺ) : (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب..)^(٣) .

إن أم المؤمنين (رضى الله عنها) حددت يوم أحد بالذات وهى عليمه بما وقع فيه، وبمن قاتلوه (ﷺ) ولذلك كان رده غاية فى الروعة والدقة حين قال لها: (من قومك) وهى كلمة لها دلالات عميقة. إن قومه مظنة نصره صاروا حربا عليه .

وبهذا نرى كيف كان إحساس طرفه وعمق تفكيره على الرغم من صغر سنه، ونترك طرفه وننتقل إلى زهير، الرجل الوقور الحكيم الصبور، الذى لم يغفل الحديث عن الظلم فيقول:
جرئ متى يظلم يعاقب بظلمه .: . سريعا وإلا يبد بالظلم يظلم

(١) يراجع شرح البيت فى شرح ابن كيسان ص٦٤، وشرح ابن الأنبارى ص٣٩٢ والزوزنى ص١٢٥ .

(٢) يراجع الحديث الشريف ومعنى الاستفهام ودلالاته فى فتح البارى ج١ ص٣١ .

(٣) ينظر فتح البارى ج٦ ص٣٦٠ برقم / ٣٢٣١ طدار الريان للتراث .

إنه يعنى: من لم يدفع ويردع عن حوضه يهدم، وسواء أكان يعنى بالحوض حوض الماء على الحقيقة، أم كان يقصد به الحريم واستعار الحوض لذلك ورشح الاستعارة بقوله: (يهدم) فإن دفع الأذى عن الحوض . بالمعنى الذى أراده . مقبول خاصة فى تلك البيئة التى تحرص غاية الحرص على قطرة الماء ، وعلى النساء أيضا، لكن الشيء الذى يحتاج تأملا هو قوله: (ومن لا يظلم الناس يظلم) ومعناه: من كف عن ظلم الناس ظلّمه وركبوه^(١) .

وزهير لا يدعو فى هذا البيت إلى الظلم، ولا يمدحه، وإنما هو يقرر حقيقة ظاهرة فى ذلك المجتمع الجاهلى الذى لا يقدر إلا الأقوياء الجبارين! وقد أشرت إلى طبيعة هذا المجتمع فى التمهيد، وتحدثت بإطناب عن هذه العادة الجاهلية .

وهذا عنتره القوى الشجاع يذكر الظلم وأثره المؤلم على النفوس

فيقول:

أثنى على بما علمت فإننى .: سمح مخالطتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل .: مر مذاقته كطعم العلقم

إنه يخاطب عبلة التى أغدفت دونه القناع واستترت عنه زهدا فيه أو تدللا عليه، وما ذكره . هنا . يشير إلى ألم دفين فى نفسه، فقد أحس بالظلم يقع عليه منها، أو من غيرها، فذكرها ببطولته المشهورة وأنه يستحق الثناء والمدح لما تمتع به من الصفات وهى تعلم ذلك ، لأنه تربى أمام سمعها وبصرها، وهو اليوم يحتاج منها الثناء عليه؛ لأنها إن ترفعت عليه توهم الناس أنه قليل الشأن عندها، ثم يذكر لها أنه سهل المخالطة والمعاشرة للناس إذا لم يقع عليه ظلم .

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٢٨٥، ٢٨٦، وشرح الزوزنى

وهو صاحب نفس أبيية لا تقبل الظلم، فإذا ظلمه أحد فإنه يأخذ الحق منه ويرد عليه بظلم أشد وأعنف، ثم أتى بصورة تعبر عن الألم والكره، حيث شبه ظلمه لظالمه فى كراهته وعدم تحمل النفس له بمرارة العلقم، والعلقم: شجر الحنظل، وقيل: كل مر علقم، وعبر بإذا لأن هذا أمر محقق الوقوع فى هذا المجتمع الجاهلى، ولعله كان يعرض بابنة عمه وأبيها حين ترفعوا عليه ورفضوا عواطفه، وزموا ركبهم بليل مظلم وحلوا بأرض الزائرين^(١).

وصورة عنتره للظلم هنا تختلف عن الصورة التى ذكرها طرفه وتصرف فيها وأبدع؛ لأن عنتره أراد أن يصور ألم ظلمه حين يقع على أى شخص ظلمه أما طرفه فأراد أن يصور ألم الظلم حين يقع من القريب خاصة، وعلى كل حال هما أرادا بيان أثر الظلم وألمه الشديد على النفس، فأنتت صورة كل منها كما رآها لتعبر عما قصد.

وهذا عمرو بن كلثوم يذكر أبياتا تدل على عجائب (تغلب) التى كادت تأكل الناس فيقول:

وقد هرت كلاب الحى منا .: وشذ بنا قتادة من يلينا
متى ننقل إلى قوم رحانا .: يكونوا فى اللقاء لها طحيننا
وهذان البيتان شاهدان على الفخر الذى وصل . فيما أرى . إلى
حد الغرور فهو يذكر أنه من قبيلة ذات شأن وصيت فى قبائل العرب،
وحين يلبسون ثياب الحروب ويمتطون الجياد تنكرهم الكلاب وتهر
خوفا منهم .

وهير الكلاب: أصوات دون النباح، وقد فعلت الكلاب ذلك رهبة
وفزعا منهم، فقد رأت حالة لا طاقة لها بها ولا عهد! وفى المثل (شر
أهر ذا ناب) وهو يضرب حين ظهور علامات الشر، ثم أتى بهذه

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص٣٣٦ وشرح الزوزنى ص١٤٥

الصورة الرائعة (وشذ بنا قتادة من يلينا) فقد شبه حالهم في شجاعتهم وكسرتهم قوة من يحاربهم أو يفاخرهم بحال من يشذب شجر القتاد، ثم استعار صورة المشبه به للمشبه على ما هو معروف في الاستعارة التمثيلية .

والقتادة: شجرة لها شوك كالإبر لا تمس لشدة شوكتها، والتشذيب: نفي الشوك والأغصان الزائدة من هذه الشجرة، إذا قبيلته قادرة على ألا تبقى قوة في قبيلة من قبائل العرب . على حد ما قاله غرورا!

ثم تحدث عن سيطرة قبيلته ونفوذها فقال:

متى ننقل إلى قوم رحانا .: يكونوا في اللقاء لها طحيننا
إنهم ينتقلون إلى مواطن القبائل ويعتدون عليها، ويشعلون نار الحرب، وقد استعار الرحي للحرب؛ لأن الحرب تدور وتطحن كما تطحن الرحي، ثم شبه أعداءهم حين القتال بالطحين وهو كل شيء يطحن في الرحي كالحنطة وغيرها، وقد رشح الاستعارة كما هو واضح. والكلام فيه كناية عن قوتهم وبطشهم^(١).

ثم مضى مفاخرا لا يعبا بأحد فقال:

ألا لا يجهلن أحد علينا .: فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ودلالة هذا البيت لا تظهر واضحة إلا إذا ربطناه بسياق القصيدة كلها ودلالاتها العامة وفي الوقت نفسه نربط هذا الكلام بشخصية صاحبة حتى يتضح لنا مقصده في هذا البيت، وإنما ذكرت ذلك؛ لأنني رأيت الشراح قد ذهبوا في فهم هذا البيت مذهباً لا يتوافق . فيما أرى .

(١) هناك رواية أخرى للبيت: وقد هرت كلاب الجن منا. فهو يذكر أن كلاب الجن رهبتهم لما رأت أفعالهم بالإنس. والمبالغة واضحة كما ترى. يراجع شرح ابن كيسان ص ٦١، ٦٢ وشرح ابن الأنباري ص ٣٩٠، ٣٩١، وشرح الزوزني ص ١٢٣، ١٢٤ .

ونصل إلى الحارث بن حنزة المكلوم الذي تسربل في عباءة الهموم ووقف مدافعا عن قومه بهذه المعلقة التي قالها أمام الملك عمرو بن هند ردا على عمرو بن كلثوم التغلبي الذي تجاوز الحد في الفخر ولم يرع حرمة الملك ولا حرمة قبيلة بكر فنراه يقول:

وأنا عن الأراقم أنبا .: ء وخطب نغنى به ونساء
أن إخواننا الأراقم يغلو .: ن علينا في قولهم إحقاء
يخبطون البرئ منا بدى الذن .: ب ولا ينفع الخلى الخلاء
زعموا أن كل من ضرب العيد .: ر موال لنا وأنا الولاء

ويلاحظ الباحث الفروق الواضحة بين الحارث بن حنزة، وعمرو بن كلثوم فالحارث رجل يتمتع بالحكمة والوقار والحلم والرزانة أما عمرو فهو بخلاف ذلك كما ذكرت . سابقا .، ولعل السبب في حكمة الحارث وحلمه، يرجع إلى كبر سنه، فقد ذكر الأصمعي أنه قال هذه القصيدة وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين ومائة سنة^(١) .

وهو في هذه الأبيات يذكر جانبا من همومه وآلامه التي تسبب فيها الأراقم: وهم أحياء من قبيلة تغلب المعادية لبكر قبيلة الحارث، فقد أتت الأراقم بأخبار تهم وتؤلم قبيلة بكر، فتألم الشاعر منها كثيرا وأصابه الأرق فقال:

إن إخواننا الأراقم يغلو .: ن علينا في قولهم إحقاء

(١) يراجع شرح ابن الأنباري ص٤٣٣ وشرح الزوزنى ص١٥٤

وقد وصفهم بالإخوان ليرقق قلوبهم ويخلص قبيلته من ذلك العداء الذي طال بينهما، وليدل على حسن خلقه وطيب شمائله فهؤلاء الإخوان (يغنون علينا) يعنى: يرتفعون ويتكبرون ويتجاوزون الحد فى التعامل معنا، أو تغلى قلوبهم غيظا وحقدا علينا كما تغلى القدور. (فى قولهم إحقاء) أى: استقصاء وتتبع وإلحاح فى المساءة، ثم ذكر أدلة ذلك فقال:

يخلطون البرئ منا بذى الذن .: ب ولا ينفع الخلى الخلاء هم يشركون قبيلتنا . وهى بريئة . مع من أذنبوا، ولا ينفع البرئ من الذنب براءته؛ لأنهم مصرون على العداوة والقتال وهم حين يغيرون ويقتلون لا يفرقون بين أحد. وهذا البيت كناية عن صفة الظلم والتعدى الواقعة من تغلب، ثم ذكر جانبا آخر من ظلم الأرقام وكيف بنوا أحكامهم على ظنون كاذبة فقال:

زعموا أن كل من ضرب العي .: ر موال لنا وأنا الولاء

والمعنى: زعموا أن كل من تعدى على نفس أو أرض (موال لنا) يعنى أقارب وأتباع (وأنا الولاء) أى: وأنا المحاسبون والمواخذون على ذنوبهم وهذا البيت تعريض واضح بظلم وبطش الأرقام الذين أرادوا محاسبتهم على ذنوب لم يقترفوها، والشاعر ذكر (ضرب العير) مثلا للتعدى، وذكر الشراح فى العير خمسة وجوه لعل أشهرها أن العير مستعار لكليب وضربه هو قتله أو أنه مجاز عن ضرب الأوتاد والخيام فى الصحراء، ويمكن حمله على الحقيقة أى: من ضرب الحمار الوحشى وصاده^(١).

ثم أخذ يمدح قبيلته فقال:

أيها الناطق المرقش عنا :. عند عمرو وهل لذك بقاء؟
لا تخلنا على غرائك إنا :. قبل ما قد وشى بنا الأعداء
فبقينا على الشنأة تنمى :. نا حصون وعزة قعساء
قبل ما اليوم بيضت بعيون الـ :. ناس فيها تعيط وإباء

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٤٤٥ : ٤٥١، وشرح الزوزنى ص ١٥٧، ١٥٨ والمعلقة العشر للدكتور/ عبدالعزيز الفيصل ج ٢ ص ٥٩٥ : ٥٩٨ .

هو يقصد بالناطق المرقش عمرا بن كلثوم، والترقيش: تزيين الشيء وزخرفته، وقد استعار الترقيش لتحسين الكلام وتجويده فى النميمة، وهو يقصد أن الكلام خارج عن الصدق ومخالف للحق وهذا كناية عن الكذب والزور، وترقيش الكلام عند الملك الذى يحكم بين القبائل مصيبة كبرى، ولذلك كان الحارث بن حلزة ذكيا حين أراد أن يشيد بثقته فى عدل الملك فقال: (وهل لذك بقاء؟)؟ والاستفهام معناه النفس، أى: لا بقاء للكذب عند هذا الملك العادل؛ لأنه سيتحرى الأمر ويعلم الحقيقة .

وقوله:

لا تخلنا على غرائك إنا .: قبل ما قد وشى بنا الأعداء
رد صريح وهجوم واضح على عمرو بن كلثوم يقول له: لا تظن أننا جازعون مما توقع به بين الملك وبيننا، وتوغر صدره علينا، فهذا شىء لا يهمننا ولا يقلقنا؛ لأن هناك من سبقك فى الوشاية والسعاية فلم ينقص ذلك كله من قدرنا العظيم، فقد بقينا على قوتنا وعزتنا مع بغض أعدائنا لنا .

بقينا على الشنائه تنمى .: نا حصون وعزة قعساء
قبل ما اليوم بيضت بعيون الـ .: ناس فيها تعيط وإباء
فكراهة أعدائنا لم تؤثر فينا؛ لأن لنا حصونا وقوة وعزة قعساء:
أى ثابتة لا تزول، وهذه العزة الثابتة (بيضت بعيون الناس) أى: جعلت أعدائنا من فرط بغضهم لنا كأنهم عمى، والباء زائدة، وهذا مثل قول القائل لأوصلن إليك مكروها يظلم من أجله نهارك، ومثله: لأرينك الكواكب فى النهار، ومعناه لأوقعن بك أمرا يظلم من أجله نهارك حتى يصير فى عينك مثل الليل فترى الكواكب، وجعل لعزتهم تعيط وإباء: يعنى ترفع ورفض للظلم، فهو يصور العزة فى صورة شخص يأبى الضيم ويرفض الذل، ويصف عزتهم بأوصافهم هم، وقد استدل بالتاريخ

على شهرتهم وكرامتهم، وكل هذا يظهر قوتهم ولكن بأدب وحكمة ووقار^(١).

ثم أخذ يذكر العداوات القديمة والتاريخ المؤلم والحروب التي أودت بحياة كثير من القبيلتين فقال:

إن نبشتم ما بين ملحة فالصا :. قب فيه الأموات والأحياء
أو نقشتم فالنقش تجشمه النا :. س وفيه الصلاح والإبراء
أو سكتم عنا فكنا كمن أغ :. مض عينا فى جفنها أقداء
يقول : إن فتشتم وكشفتم عن القديم فتذكروا (ملحة فالصاقب)

وهما مكانان مشهوران فى الحروب التى دارت بين قبيلتى: بكر وتغلب
فهناك قتلى كثير هلكوا، وبقي أحياء يستطيعون أن يتذكروا ويعتبروا
وإن (نقشتم فالنقش تجشمه الناس) يعنى: إذا استقصيتم فى تتبع ما
جرى بيننا من قتال فهذا أمر يتكلفه الناس على مشقة وألم؛ لأنه فيه
(الصلاح والإبراء) يعنى: سينكشف فيه الأمر، ويظهر فيه براءتنا من
الذنوب وأنكم كنتم المعتدين علينا.

أو سكتم عنا فكنا كمن أغ :. مض عينا فى جفنها أقداء
يعنى: إن اخترتم السكوت ولم تستقصوا الماضى وآلامه، سكتنا
أيضا وأعرضنا عنكم ونحن على ألم ومضض، فيكون حالنا كحال من
أغمض عينه وعلى جفنه القذى . والقذى : ما يكون فى العين
والأجفان من أذى كالغمص وغيره، وهى صورة دالة على الحقد والكراهة
الباقي فى أعماق الصدور^(٢).

ثم نصحهم بالرجوع إلى العهود والمواثيق وترك البغى والفجور
فقال:

فاتركوا البغى والتعدى وإما :. تتعاشوا ففى التعاشى الداء

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٤٥٣ : ٤٦٠ وشرح الزوزنى
ص ١٥٨ ، ١٥٩ ويراجع أساس البلاغة مادة : رقص .

(٢) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٤٦٦ : ٤٦٩ وشرح الزوزنى
ص ١٦٠ ، ١٦١ .

بدل الشاة ظبيا من الظباء الوحشية وقد نهى النبي (ﷺ) عن ذلك في قوله: (لا فرع ولا عتيرة) ^(١)، والحجرة: الحظيرة تتخذ للغنم، والربيض: جماعة الغنم، وبهذه الصورة النادرة صور الحارث بن حلزة تعدى قبيلة تغلب على قبيلة بكر، حيث تركوا من يجب محاسبتهم واعتدوا على بكر، ومعلوم أن مؤاخذة المرء بذنب غيره ظلم صراح، وهكذا رأينا حكمة الحارث بن حلزة وحلما ورجاحة عقله فقد احتج بالحق ورجع إلى التاريخ وكشف عن الحقائق، وأراد السلام، وأرى أن كلامه فى هذه المعلقة يبرحه ليكون من حكماء العرب ، وهو . كما ترى . يختلف اختلافا ظاهرا عن عمرو بن كلثوم الذى أصابه الغرور ^(٢) .

وأرى أن معلقة الحارث بن حلزة تحتاج إلى دراسة مستقلة تكشف عن سيرة العرب وأيامها، وأماكن الحروب فى بلاد العرب، وتنقل القبائل العربية، والآثار التى ترتبت على الحروب، وما تركته من أحقاد لم تمحها الأيام والسنين!! ولولا أن تداركهم الله بالإسلام لهلكوا، وكم تأثرت وأنا أقرأ فى قصيدة الحارث بن حلزة الذى كان يتجرع مرارة الظلم، ويصرخ من التعدى والبغى، وذلك الواقع المؤلم وما ورثوه من عداوات لم تستطع صحراء الحجاز الواسعة أن تمحوه وتغضى عليه برمالها!!!

(١) ينظر الحديث فى فتح البارى ج٩ ص٥١٠ : ٥١٢ .
(٢) يراجع شرح ابن الأنبارى ص٤٨٤ وشرح الزوزنى ص١٦٧

المبحث الرابع عادتهم عند الموت

وجدنا عند بعض شعراء المعلقات ما يكشف عن معتقدتهم في الموت، وتصورهم له، وكانت بينهم فروق واضحة في هذا الشأن .

فهذا طرفة بن العبد يقول:

أرى الموت يعتام الكرام
ويصطفى طفي .
عقيلة مال الفاحش المتشدد

وهذا البيت جاء فى صحبة أبيات أخرى ذكرها طرفة تتعلق بالموت وجاءت كلها بعد حديثه عن الخمر وارتوائه منها قبل الموت، ووقعت الأبيات ردا على من لامه فى كثرة شرب الخمر^(١).

وهذا البيت يحمل بعض الدلالات التى استقرت فى نفس طرفة منها: أنه وضع نفسه مع عظماء الرجال الكرام الذين ذاع صيتهم، وعلا شأنهم فى جزيرة العرب، سواء أكان هو كذلك أم توهم نفسه على ذلك .

ومنها : أنه كان يعيب على من حرصوا على المال ولم ينفقوه فى الكرم بذبح الذبائح أو شرب الخمر، وهذا المعنى يؤكد لنا العلاقة بين كثرة شرب الخمر وما استقر فى نفوس شاربيها من أنها دليل على الكرم .

ومنها هذا المعنى المتبادر إلى الذهن حيث صور الموت فى هذه الصورة . وكأنه قد أحس بأنه لن يعمر طويلا . صوره بشخص (يعتام الكرام) أى: يختار كرماء الرجال المشهورين فيفنيهم، ويختار . أيضا . (عقيلة مال الفاحش المتشدد) فهو يأتى على كرائم الأموال وأعظمها من الإبل التى عقلها أصحابها وتشددوا فى حفظها وصيانتها، فينتزعها من دون غيرها، فالموت يصطفى الأجواد من البشر وكرائم الأموال .

وظرفه . فى هذا البيت . لا ينكر الموت ولكنه يصوره بشخص يختار الكرماء فلا يتركهم طويلا فى الحياة، أما ما عداهم فيعيشون طويلا ثم يأتهم الموت الذى لا مفر منه، وقد أكد هذا المعنى بقوله:

لعمرك إن الموت ما أخطأ
لكالطول المرخى وثيابه فى اليد
الفتى

(١) تراجع هذه الأبيات فى المعلقة، وقد منعى من نكرها خشية الإطالة والخروج عن عنوان البحث، فاكتفيت بالشاهد .

القرآنية أتت ردا على معتقد العرب في الموت وهدتهم للحق وأنقذتهم من سوء الفهم .

وقد كان لبيد بن ربيعة أدق فهما وأكثر وعيا وإدراكا للحق من زهير، ومن طرفه وأمثالهما حيث تحدث عن المنيا بفهم واضح ومنطق سليم فقال:

صادفني منها غرة فأصبتها .: إن المنيا لا تطيش سهامها
فقلوه: (إن المنيا لا تطيش سهامها) معناه: أن المنيا حين تقع تصيب ولا تخطئ، والمنيا لا سهام لها، ولكنه جعل لها سهاماً على التصوير والتشخيص، كما جعل لها شاعر آخر أظفارا في قوله: (وإذا المنية أنشبت أظفارها) على طريقة الاستعارة المكنية، وهذا التصوير يبرز لنا قوة المنيا ورهبة النفوس منها^(٢).

وكان عمرو بن كلثوم صادقا حين قال:
وإنا سوف تدركنا المنيا .: مقدره لنا ومقدرينا
فهو موقن أن المنيا أمور مقدره، لا مفر منها^(٣).

ونعود إلى طرفه مرة أخرى لنقرأ قوله:
فإن مت فانهيني بما أنا أهله .: وشقى على الجيب يا ابنة معبد
إنه يوصي ابنة أخيه معبد حين يأتيها خبر موته أن تنعاه أي:
تشيع وتذيع خبر موته في الناس، وأن تذكر عمها طرفه، وتثنى عليه بأفعاله التي امتاز بها ولم يقدر عليها أحد سواه، ثم يوصيها بأن تشق عليه الجيب أي: تقطع وتمزق جيب ثيابها، والجيب هو: الطوق الذي

(١) يراجع شرح ابن الأنباري ص ٢٨٨، ٢٨٩، وشرح الزوزني ص ٨٦.

(٢) يراجع بيت لبيد في معلقته في شرح ابن الأنباري ص ٥٥٧ وشرح الزوزني ص ١٠٤ وراجع التصوير وبلاغته في: وإذا المنية أنشبت أظفارها في بغية الإيضاح ج ٣ ص ١٣.

(٣) يراجع بيت عمرو بن كلثوم في معلقته في شرح ابن الأنباري ص ٣٧ وشرح الزوزني ص ١١٩.

تدخل منه الرأس في الثياب، وخص الجيب؛ لأن الشق منه أمكن، فهو يطلب منها أن تحزن بشدة على موته وأن تعبر عن حزنها الشديد بشق الثياب^(١).

وشق الجيب عادة جاهلية حرمها الإسلام . كما أوضحت في التمهيد . وأرى أن الأنثى حين تشق الجيب تخرج عن طبيعتها وما عهد فيها من الحفاظ والوقار والحياء؛ لأن شق الجيب قد يترتب عليه ظهور بعض مفاتنها، ويتركها في حال غير مألوف، وكذلك يكون الأمر في كشف الرأس وجذب الشعر ولطم الخد، فكأن الأنثى تعبر بخروجها عن طبيعتها عن عظم مصيبتها وكبير فجيعتها التي جعلتها تتعدى على جسدها وتخرج عن وقارها .

وقد حرم الإسلام ذلك ؛ لأنها تهمل عقلها، وتغيب ضميرها عن الإيمان بالقدر والصبر على المصيبة وكأنها حين تفعل ذلك تكون غائبة عن ربها زارية على قضائه .

وهناك عادة جاهلية أخرى متعلقة بالموت ذكرها لبيد في قوله:
تأوى إلى الأطناب كل رذية .: مثل البلية قاص أهدامها

إنه يمدح نفسه بأنه الملاذ الآمن لكل الفقراء الجياع، فهم يأوون إلى أطناب بيته، والأطناب: هي حبال الخيمة في بيت الشعر الذي يسكنه، والرذية: المرأة الفقيرة البائسة التي أرذاها الدهر والهزال، ثم يصور هذه المرأة بصورة عجيبة نادرة حقا وهي (البلية)، والبلية: ناقة الرجل تعقل عند قبره، وتطرح حقيبتها على رأسها، وسميت بلية؛ لأنها تبلى على قبر صاحبها فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت!! وربما حفر لها، وربما أحرقت بالنار بعد موتها، وإنما كان العرب يفعلون ذلك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن صاحبها يحشر عليها، وجمعها: البلايا

(١) يراجع شرح ابن الأنباري ص ٢٢٣، ٢٢٤ وشرح الزوزنى ص ٦٨

وهو بهذه الصورة التي اختارها يظهر هذه المرأة الفقيرة البائسة في أسوأ صورة تخيلتها العرب، والدارسون لعادات الشعوب. فهذه المرأة وصلت إلى مرحلة الهلاك المتحتم، ولم تجد أملاً أمامها إلا الوقوف أمام بيت هذا الشهم الكريم لتنال عطاءه، وإذا كانت البلية قد حرمت من كل شيء ووقفت تنتظر الموت، فهذا موجود أيضاً في تلك المرأة البائسة، التي عجزت عن الكسب بسبب مرضها وهزالها وكبر سنها .

وقوله: (قالص أهدامها) أي: متشمرة أخلاقها التي عليها، وواحد الأهدام: هدم وهو: الثوب الخلق القديم فثياب هذه المرأة تقلصت عليها يعني: تجسرت، وانكسرت وانزوت عن الأرض لأنها خلقان بالية^(١) .

وإني لأعجب بكرم هذا الشاعر ونبل نفسه وإحساسه بالجياع المهزولين، وأكد . من صدق قوله وروعة صورته . أرى هذه المرأة بتلك الصورة واقفة الآن أمامي، وهي مقوسة الظهر تكاد رأسها تصل إلى ركبتيها من الضعف والهزال وكبر السن، وأرى ثيابها المنكمشة وهي تتوكأ على عصاها الهزيلة مثلها ولا تكاد تبصر بعينيها، هي الآن بصورتها ممسكة بحبال خيمة لبيد، فإما عطاؤه يقوتها، وإما تدفن في مكانها . لله درك يا لبيد!

وهذا الحارث بن حنظلة يذكر البلية في صورة رائعة فيقول:

أتلهى بها الهواجر إذ كـ . ل ابن هم بليّة عمياء

(١) يراجع شرح ابن الأنباري ص ٥٨٩ ، ٥٩٠ وشرح الزوزني ص ١١٤ .

إنه يتلهمى بناقته أى: يركبها ويتعلل بوطنها وسرعتها وقت الهواجر أى: انتصاف النهار، واحدتها هاجرة، وسميت بذلك لبعدها عن طيب الهواء واعتداله، أخذت من قولهم: هجرت الرجل إذا بعدت عنه .

إنه يركب هذه الناقة ويقطع بها المسافات فى وسط الصحراء لا يهمله حر الهاجرة ولا ما يترتب عليه، وهذا مدح ظاهر لناقته ولنفسه أيضا، ثم أكد هذا بقوله: (إذ كل ابن هم بلية عمياء) وابن الهم: من نزل به الهم ولازمه، فيقال له: ابن هم، وأخوهم، كما يقال: ابن السبيل، وأخو الشيطان ... ومعلوم أن ابن الهم فى أرق دائم لا يهدأ ولا يستقر، فإذا كان ابن الهم قد صار مثل (البلية العمياء) التى عصبت عيناها وعقلت على قبر صاحبها ولم ترحل عنه، فهو . أعنى الحارث . ليس كذلك، وهذه مبالغة واضحة . كما ترى . فى ذكر شجاعته ونشاطه، حين يتناقل كل الناس حتى أصحاب الهموم^(١) .

وعادة البلية لم تأخذ شهرة فى المعلقات السبع، ولولا هذه الأبيات القليلة التى ذكرت فيها ما علمنا عنها شيئا، ولعل سبب عدم شهرتها أنها كانت عادة خاصة ببعض القبائل التى كانت تؤمن بالبعث والحساب، وكانت . فيما أظن . خاصة بالزعماء المشهورين فقط وليست توضع على قبور كل الناس، وعلى كل حال فد(البلية) فى الشعر الجاهلى عموما تحتاج إلى دراسة مستقلة .

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٤٤٤، ٤٤٥ وشرح الزوزننص ١٥٧ .

المبحث الخامس

عادات: التمايم، والوشم، والميسر، والأزلام

ذكر شعراء المعلقة عادات جاهلية أخرى غير ما سبق منها:

. التمايم : التي كانوا يعلقونها على الصغار، وقد ورد ذكرها في

قول امرئ القيس:

فمئتك حبلى قد طرقت
ومرضع
فألهيتهما عن ذى تمايم محول

وقد سبق لنا الحديث عن هذا البيت في أثناء تناولنا لفحش امرئ القيس وعهره، ونذكر . هنا . شيئاً يتعلق بآخر هذا البيت وهو قوله: (ذى تمايم محول) وهذا التعبير كناية عن الطفل الصغير، الذى بلغ الحول من ولادته أو قاريه، وقد صور امرؤ القيس ضعف هذا الوليد فى صغره وحاجته إلى أمه بهذه الصورة من تعليق التمايم والعود عليه، وهى عادة أبطلها الإسلام وحرّمها كما ذكرنا فى التمهيد .

والمرأة . عادة . تشغل بولدها فى هذا السن الصغير عن أشياء كثيرة، فإذا وصل إليها وألهاها عن طفل هذا حاله فهو إذا رجل عظيم الشأن له الحظوة عند النساء^(١) .

الوشم : وقد ورد ذكره فى قول طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة ثمهد
تلوح كباقي الوشم فى ظاهر
اليـد^(٢)

(١) يراجع شرح البيت فى شرح ابن الأنبارى صـ ٣٩ : ٤١ وشرح الزوزنى صـ ١٣، ١٤ .

(٢) هذه هى الرواية المشهورة للبيت، وروى ابن الأنبارى آخر البيت: ظلت بها أبكى وأبكى إلى الغد . ينظر شرح ابن الأنبارى صـ ١٣٢، ١٣٤ وراجع شرح الزوزنى صـ ٤٥ .

فطرفة في هذا البيت يشبه ظهور أطلال حبيبته وما بقى من آثارها ببقاء الوشم وظهوره في ظاهر اليد، فهو حين مر (ببرقة ثمهد) وشاهد ما بقى من آثار ديار الحبيبة أراد أن يقرب صورة ما رآه لمن لم يره، فلم يجد أمامه إلا صورة الوشم الذى كانت تتزين به النساء في أيديها، وإذا كانت صورة المشبه به . الوشم . مطبوعة في عقله ومألوفة له ومصورة أمام عينيه فهكذا صورة أطلال خولة، إنه لم يرد اللون وحده، ولا الظهور والوضوح فقط، ولكنه أراد أشياء أخرى تتعلق بقلبه وهواه مما كان يراه في أيدي الحسان وكأنه يضيف على الأطلال صفة الحياة والجمال، فهو يرى في الأطلال رائحة الحبيبة وآثار الحبيبة، فحين يقف عليها يستلهم ذكريات من سكنوها .

وأرى هنا ملمحا نفسيا عميقا أراده الشعراء، إنه دليل الوفاء للأحبة، فالأطلال إذا لها ملمح نفسى عناه الواصفون، وكأنها علامات ثابتة فى نفوسهم محفورة فى الذكريات، إنها الرابطة بين الشاعر ومن سكن هذه الأماكن كالرابطة التى تربطنا بالمواضع التى ولدنا فيها، أو التى عشناها مع والدينا وأرحامنا، وكنا نلهم فيها ونلعب أيامنا الأولى!! فليس بالأمر العجيب أن يسير الشاعر وسط صحراء شاسعة، وفضاء واسع ثم يأتى على أطلال أحبته فيسترجع ذكرياته فيها^(١) .

وورد تصوير الأطلال بالوشم أيضا فى قول زهير:
ديار لها بالرقمتين كأنها .: مراجع وشم فى نواشر معصم
إن زهيرا وقف على ديار حبيبته (أم أوفى) التى رحلت عنها ولم يبق منها إلا الدمن وهى: آثار الديار وما سودوا بالرماد وغير ذلك ...

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ١٣٢ : ١٣٤ وشرح الزوزنى ص ٤٥ .

فهيجت هذه الآثار الذكريات، فهناك بالرقمتين كانت تسكن الحبيبة
وهناك كانت تنتجع!!

ثم رحلت حبيبه وتركت آثارا لم ترحل وبقايا لن تزول، ثم أخذ
يصور هذه الآثار بقوله: (كأنها مراجع وشم فى نواشم معصم) ومراجع
الوشم: أن يعاد الوشم على مكانه القديم مرة أخرى ليكون ظاهرا.
ونواشر المعصم: عروقه الظاهرة، والمعصم: هو موضع السوار من
اليد، فهو يشبه رسوم دارها فى هذين الموضعين . الرقمتين . بوشم قد
ردد وجدد وأعيد بعد انمحائه^(١).

وقوله: مراجع وشم يستوقفنا طويلا لنبحث عن دلالاته وما كان
يقصده زهير، ونتساءل أكان يقصد أنها كانت تعناد سكنى هذه
الأماكن، فما ترحل عنها إلا لتعود إليها على عادة قبائل العرب حين
تنتجع، ومعنى هذا أن قبيلتها كانت تقيم بيوت الشعر ومواقد النار
على آثار قديمة، وأنه وقف متأملا فى كل تلك الآثار سواء أكانت
قديمة أم جديدة؟

أم كان يقصد أنه وقف على أطلالها بعد رحيلها عنها بوقت
قصير، فقد كانت تسكن هنا منذ وقت قريب وتمنى لو صادفها فى هذا
المكان؟

أم كان يقصد أن المطر والسيول كانت جديدة على هذا المكان
فظهرت آثارها واضحة جديدة؟ أم كان يقصد تشابه الأطلال فى
الموضعين واتحادهما تماما كاتحاد الوشم المكرر فى الهيئة والصفة؟

إننى أجد فى قوله: (مراجع وشم) دلالات عميقة لم أجدها عند
الشرح .

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٢٣٨ وشرح الزوزنى ص ٧٣ .

- الأزلام : وهى القداح والسهم التى يقارع بها فى الميسر وقد ورد ذكرها فى قول طرفة:

وأصفر مضبوح نظرت .. على النار واستودعته كف مجمد
حواره

وأصفر مضبوح: كناية عن القدح الذى قرب من النار حتى أثرت فيه، وهو السهم الذى كان يرمى حين القمار، وكانت العرب تفتخر بالميسر؛ لأنه لا يركن إليه إلا السمع الجواد، وكانوا ينحرون الجزور ويضربون بالقداح، وأكثر ما يفعلون ذلك فى ساعات العشى حين يرد الضيف فى أيام الشتاء وشدة البرد، وكانوا يوقدون النار للتدفئة والشواء والطبخ وهذا ما قصده بقوله (نظرت حواره على النار) يعنى: انتظرت رجوعه فائزاً أو خاسراً . ونحن جلوس حول النار . ولم تهمنى النتيجة؛ لأننى أريد أن يأكل الناس من لحم هذه الجزور حتى يشبعوا ولم أكن حريصاً على القدح المعلى، بدليل (استودعته كف مجمد) يعنى: شخصاً لا يحسن رمى القداح، فهو غير مظنة الفوز^(١).

وورد ذكر الأزلام والميسر فى قول لبيد:

وجزور أيسار دعوت لحتفها .. بمغالق متشابهه أعلامها
أدعو بهن لعاقر أو مطفل .. بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الغريب كأنما .. هبطا تباله مخصبا أهضامها

ولبيد قال هذا مفتخراً بكرمه فهو يعنى بـ(جزور أيسار) الجزور التى كانت تدبح فى الميسر، فقد دعا لذبحها (بمغالق متشابهه أعلامها) وهى: القداح التى كان يضرب بها فى الميسر وهى متشابهه ولا يعلم أحد أى هذه القداح سيفور، فهو يدعو لعقر جزور الميسر ولا

(١) يراجع شرح البيت فى شرح ابن الأنبارى ص ٢٢٩، ٢٣٠، وشرح الزوزنى ص ٧٠، ٧١ .

يهمه الفوز أو الخسارة؛ لأنه يقصد من وراء ذلك هدفا نبيلاً وهو إطعام الطعام للجميع مهما كلفه ذلك من بذل الأموال .

إنه يدعو بذلك لذبح الناقة (العافر) وهى: التى لا تلد ومثل هذه النوق تمدح لكثرة اللحم والشحم، ويدعو بـ(المطفل) وهى الناقة التى معها ولدها وهى أنفس النوق عند العرب، إنه لا يبالى النوع حين يريد إطعام الناس، فهو يذبح لبيذل (لحامها) جمع لحم، يبذله لجميع الجيران لا يفضل ولا يخص أحداً .

فالضيف الذى يأتيه، وجاره الغريب الذى ليس من عشيرته حين يدعوهم يجدون عنده الخير العميم والسعة فى النعيم كأنهم نزلوا (تبالة) وهو واد خصيب قريب من الطائف^(١) .

وورد ذكر القداح أيضاً فى قول عنتره:

ومسك سابغة هتكت فزوجها .: بالسيف عن حامى الحقيقة معلم
ربذ يدها بالقداح إذا شتا .: هتاك غايات التجار ملوم

قوله : (مسك سابغة) ويروى: (مشك سابغة) هى: الدرع الواسعة التامة التى شدت بإحكام، وكانت العرب تجعل سيرا فى جيب الدرع يجمع جيبها فإذا أراد أحدهم الفرار جذب السير فقطعه واتسع الجيب فألقاها عنه وهو يركض، وقوله: (هتكت فزوجها) أى: قطعت وخرقت أو ساطها بالسيف، إنه فعل كل ذلك فى مواجهة فارس شجاع وصفه بأنه (حامى الحقيقة معلم) يعنى: يحمى كل ما يجب عليه حمايته وقد علم نفسه بعلامة فى الحرب ليعرف أنه شجاع قوى حتى ينتدب الأبطال لمبارزته، وقد دخل عليه عنتره فمزق ما عليه من دروع ولم يخشه برغم قوته .

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٥٨٨، ٥٨٩ وشرح الزوزنى ص ١١٣، ١١٤ .

ثم وصفه بقوله: (ريذ يدها بالقداح إذا شتا) فهو شجاع وكريم أيضا إنه سريع الضرب بالقداح حين يأتي الشتاء، وذكرت . سابقا . أن العرب كانت تفتخر بذلك؛ لأنه دليل على الثراء والكرم .

وتأمل قوله: (هتاك غايات التجار ملوم) إن هذا الفارس الشجاع الكريم يأتي الخمارين فيشتري كل ما عندهم من الخمر، فيقلعون راياتهم وخيامهم ويرحلون، وهذا كناية واضحة عن كرم وثناء هذا الفارس، وهو على حاله هذا (ملوم) يعنى: يلومه الناس على إنفاقه ماله في الفتوة وإمعانه في الجود وإسرافه في البذل .

ومعلوم أن التجار أصحاب الخمر كانوا إذا نزلوا في مكان رفعوا راية ليعرفوا بها وهي: الغاية فلا يقلعونها حتى تشتري كل خمورهم، ويقصد عنتره بقوله: (هتاك غايات التجار) أنه وحده يفعل ذلك والمبالغة واضحة كما ترى، فعنتره أقدم على فارس قوى شجاع كريم شراب خمور، له صيت كبير، وعلامة بارزة في القبائل، ولم يستطع مع هذا كله أن ينجو من عنتره، وكلام عنتره هنا يدخل فيما يسمى بالمذهب الكلامي أو الحجة العقلية، حيث استدل على شجاعته وبطولته بانتصاره على بطل بتلك الصفات، وإن كان إدراك مقصده دقيقا خفيا لكنه . فيما يتبادر لى . لم يقصد غير هذا ، فأثبت كل هذه الصفات لخصمه للدلالة على المعنى الذى أشرت إليه، وهذا هو السبب الحقيقى وراء شهرة عنتره، فهو يعلم قدر الأبطال ولا يخشاهم^(١) .

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ وشرح الزوزنى ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

الخاتمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، وبعد:

ففى ختام هذا البحث أشير إلى أبرز النتائج التى اهتدى إليها الباحث وهى:

١ - كانت المعلقة السبع سجلا تاريخيا صادقا لحياة العرب وعاداتها الجاهلية التى أبطلها الإسلام من ذلك .

. عادة شرب الخمر وافتخارهم بذلك، وسبب انتشار هذه العادة .
. عادة الإفحاش فى وصف النساء، وسبب هذه العادة .
. عادة الظلم الواقع فى تلك الحياة، وأثره على قبائل العرب،
وأفرادها .

. عاداتهم عند الموت .
. عادات أخرى مثل: الوشم، والتمايم، والميسر، والأزلام .

٢ - اختلفت أحوال الشعراء فى تناول هذه العادات فى معلقاتهم فمنهم من أطنب ومنهم من اختصر، ومنهم من تعهر ومنهم من عف واستتر . وكان ذلك راجعا إلى طبع كل شاعر .

٣ - كانت كل معلقة صورة بارزة لشخصية صاحبها، ودالا يدل عليه، وجاءت كل صورة بيانية لتلك العادات الجاهلية معبرة أصدق تعبير عن صاحبها . فامرؤ القيس جريئ مهتم بامتاع نفسه، وطرفة محب للشهرة، وزهير مكسو بالوقار والحكمة، وعنتره محب للانفراد والوحدة وعمرو بن كلثوم مزهو مغرور، والحارث بن حلزة مسربل بالهموم حافظ لتاريخ الحروب، وذكرت فى البحث أهمية المنهج النفسى فى إدراك العلاقة بين الصورة وصاحبها .

- ٤ - تفوق شعراء المعلقة في الصور البيانية التي ذكروها للعادات الجاهلية، تفوقا كبيرا وهناك صور نادرة، تفرد بها أصحابها وقد أشرت إلى ذلك في مواطن كثيرة من البحث ونبهت على ذلك في أثناء تحليل صورة كل شاعر، وذكرت أن هذه خصوصيات بيانية يجب أن نقيس بها حكمنا على الشعراء .
- ٥ - هناك كثير من الدلالات في الشعر العربي القديم لا يمكن فهمها من التركيب وحده، ويحتاج فهمها إلى مراجعة السياق ومقام الحديث وفهم طبع الشاعر، وورد ذلك بكثرة عند امرئ القيس، وعمرو بن كلثوم، ونبهت على ذلك في حينه .
- ٦ - تقاربت بعض الصور البيانية عند أصحاب المعلقة، وهذا دليل واضح على تأثير البيئة والعادات، وبقي لكل شاعر مهارته الأسلوبية التي تميزه عن شاعر آخر .
- ٧ - بدا واضحا جراءة امرئ القيس وطول نفسه في الحديث عن مغامراته مع النساء، وذكرت أسباب ذلك، ونبهت إلى أن هذه الجراءة كانت صفة خاصة بامرئ القيس، وجاءت صور عمرو بن كلثوم قريبة في بعض الأحيان من صور امرئ القيس بيد أنه لم يصل إلى درجته .
- ٨ - ظهرت حكمة الحارث بن حلزة وفهمه لتاريخ الحروب وعواقبها وما تتركه من آثار مؤلمة في نفوس الناس. وقلت: إن معلقة الحارث بن حلزة ترشحه ليكون ضمن حكماء العرب في الجاهلية .
- ٩ - ورد التصوير بالبلية في صور نادرة وعجيبة، وعادة البلية لم تذكر بكثرة في المعلقة السبع؛ لأسباب معينة، أشرت إليها في البحث. وهناك عادة جاهلية أخرى لم نسمع عنها إلا قليلا وهي:

عادة العتيرة، التي نهى عنها رسول الله (ﷺ) . كما ذكرت في
البحث . ونبهت إلى أن عادة البلية تحتاج إلى دراسة بيانية
مستقلة تكشف عن صورها في الشعر الجاهلي كله .

وعلى كل حال فما زالت المعلقة السبع والشعر الجاهلي كله
بحاجة ماسة إلى كثير من الدراسات الجادة التي تكشف عن أسرار
بلاغة هذا اللسان العربي لعل ذلك يهدينا إلى إدراك أسرار القرآن
العظيم ومعرفة خصائصه الأسلوبية كما كان حال الجيل الأول الذين
هداهم الله وهدى بهم كثيرا من عباده .

أسأل الله أن ينفع بهذا البحث، وأن يجنبنا كل عادة حرمها على
عباده .

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - أساس البلاغة للزمخشري . تحقيق: عبدالرحيم محمود. دار المعرفة . بيروت . لبنان .
- ٣ - أطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والإسلام. تأليف على الجندى وآخرين. مكتبة الأنجلو المصرية ط أولى ١٩٥٩م .
- ٤ - إعجاز القرآن للباقلاني. تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. مؤسسة الكتب الثقافية ط الرابعة ١٤١٧هـ . ١٩٩٧م .
- ٥ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. لعبدالمتعالي الصعدي مكتبة الآداب ط العاشرة ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م .
- ٦ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية د/ محمد أبو موسى . مكتبة وهبة ط أولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م .
- ٧ - البيان والتبيين للجاحظ. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. دار الجيل . بيروت .
- ٨ - الحيوان للجاحظ . تحقيق عبدالسلام محمد هارون. دار إحياء التراث العربي . بيروت ط الثالثة ١٣٨٨هـ . ١٩٦٩م .
- ٩ - ديوان امرئ القيس شرح د/ محمد الإسكندراني ود/ نهاد رزوق دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٦م .
- ١٠ - ديوان زهير لأبوالعباس ثعلب تقديم د/ حنا ناصر دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م .

- ١١ - ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلام الشنتمرى . دار الكتاب العربى
بيروت ط أولى ١٤١٤هـ . ١٣٩٣م .
- ١٢ - ديوان عنتره . شرح د/ محمد حمود . دار الفكر . لبنان . ط أولى
١٩٩٦م .
- ١٣ - ديوان كعب بن زهير برواية أبالحسن العسكرى . شرح د/حنا
ناصر . دار الكتاب العربى . بيروت . لبنان ١٤٢٥هـ . ٢٠٠٤م .
- ١٤ - شرح أحاديث من صحيح البخارى د/ محمد أبوموسى مكتبة
وهبة ط أولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م .
- ١٥ - شرح المعلمات السبع للزوزنى . دار بيروت للطباعة والنشر
بيروت ١٤٠٦هـ . ١٩٨٦م .
- ١٦ - الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى تحقيق د/ مفيد قميحة
والأستاذ/ محمد أمين الضناوى . دار الكتب العلمية . بيروت .
لبنان ط أولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م .
- ١٧ - صحيح مسلم بشرح النووى . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان
ط أولى ١٩٢٩م .
- ١٨ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى . تحقيق: محمود
محمد شاكر . دار المدنى بجدة .
- ١٩ - العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف . دار المعارف ط الثامنة .
- ٢٠ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تحقيق:
محب الدين الخطيب وآخرين . المكتبة السلفية ط ثالثة
١٤٠٧هـ .
- ٢١ - القاموس المحيط للفيروزآبادى . مؤسسة الرسالة .

- ٢٢ - قراءة في الأدب القديم د/ محمد أبو موسى. دار الفكر العربي ط
أولى ١٩٧٨ م.
- ٢٣ - لسان العرب لابن منظور المصري. ط دار المعارف .
- ٢٤ - المتنبى رسالة في الطريق إلى ثقافتنا للأستاذ/ محمود محمد
شاكرا. مطبعة المدني ١٤٠٧ هـ . ١٩٨٧ م.
- ٢٥ - المزهر للسيوطي ط محمد علي صبيح .
- ٢٦ - المعلقات العشر شرح الدكتور: عبدالعزيز محمد الفيصل،
الرياض ط أولى ١٤٢٣ هـ . ٢٠٠٢ م.
- ٢٧ - معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبا الحسن بن كيسان تحقيق
د/محمد إبراهيم البنا دار الاعتصام ط أولى ١٤٠٠ هـ . ١٩٨٠ م.
- ٢٨ - مقدمة ابن خلدون للإمام: عبدالرحمن محمد بن خلدون
تحقيق: درويش الجويدى. المكتبة العصرية . بيروت ١٤٢٣ هـ .
٢٠٠٢ م.